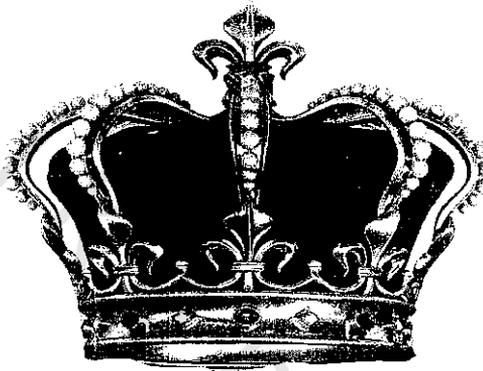


# في سبيل السائح



صاغها الأديب الكبير

مصطفى لطفى المنفلوطي

للأديب الفرنسي

فرنسوا كوييه

دراسة وتقديم

عادل عبد المنعم أبو العباس





## للنشر والتوزيع والتصدير

ناهذتك على الفكر العربي  
والعالمي من خلال ما تقدمه  
لك من روائع الفكر العالمي  
والكتب العلمية والأدبية  
والطبية ونوادير التراث  
واللغات الحية. شعارتنا:  
قدم الجديد..

وبسعر رخيص

يشرف عليها ويديرها

مهندس

**مصطفى عاشور**

76 شارع محمد فريد - النزهة - مصر الجديدة - القاهرة

تليفون: 26379863 - 26353282 فاكس:

26380483

Web site: [www.ibnsina-eq.com](http://www.ibnsina-eq.com)

## جميع الحقوق محفوظة للنشر

لا يجوز طبع أو نسخ أو تصوير أو  
تسجيل أو اقتباس أي جزء من  
الكتاب أو تخزينه بأية وسيلة  
ميكانيكية أو إلكترونية بدون إذن  
كتابي سابق من الناشر.

كوبيه، فرانسوا 1842 - 1908

في سبيل التاج/ لفرنسوا كوبيه؛ صاغها مصطفى لطفي  
المنفلوطي؛ دراسة وتقديم عادل عبد المنعم أبو العباس.

ط1- القاهرة: مكتبة ابن سينا، 2014.

96 ص، 24 سم

تدمك 2 088 447 977 978

1- القصص الفرنسية

1- المنفلوطي، مصطفى لطفي بن محمد بن حسن 1872 - 1924  
(صياغة)

ب- أبو العباس، عادل عبد المنعم (دارس ومقدم)

843

ج- العنوان

رقم الإيداع: 2014/17414

الترقيم الدولي: 2-088-447-977-978

تصميم الغلاف: إبراهيم محمد إبراهيم

الإخراج الفني: وليد مهني علي

تطلب جميع مطبوعاتنا بالملكة العربية السعودية من

**مكتبة الساعي للنشر والتوزيع**

ص.ب 50649 الرياض 11533 - هاتف: 4353768 . 4351966 . 4359066

فاكس: 4355945 جوال: 0550671967

E-mail: [alsaay99@hotmail.com](mailto:alsaay99@hotmail.com)

مطابع العبور الحديثة - القاهرة

تليفون: 46651013 فاكس: 46651599

الحمد لله وكفى، وسلاماً على عباده الذين اصطفى... وبعد...

فإن الذي يقرأ أدب «المنفلوطي» - قراءة منصف - يدرك تنوع ثقافة الرجل، فهو أديب عربي عملاق، يعرف دينه، وما يحيط به، ويدرك أسرار لغته، ويمتلك أدواته الفنية امتلاكاً ماهراً ذي حساسية وتذوق.



ويكفيه ما قاله الأستاذ العقّاد: «كانت الوصية الأولى لطالب الإنشاء عند أساتذة اللغة العربية بإجماع الآراء؛ اقرأ المنفلوطي، واكتب على منواله»<sup>(1)</sup>. ولا يكتفي العقاد بما أسلفه، وإنما يقول في أمانته: «ذلك هو مكان المنفلوطي في أدب العصر الحديث على وجه الإجمال»..

وهذه كلمة حق؛ فقد أثرت كتابات الرجل في أسلوب أدباء عصره، وفي الذين جاءوا من بعدهم، فتأثر به طه حسين، ومحمد تيمور، ومحمود تيمور، وأحمد حسن الزيات، وغيرهم.

وفي ذلك يقول الزيات: «أشرق أسلوب المنفلوطي على وجه جريدة «المؤيد» إشراق البشاشة، وسطع في أندية الأدب سطوع العبير، ورنّ في أسمع الأدباء، رنين النغم، ورأى القراء الأدباء في هذا الفن الجديد ما لم يروا في فقرات الجاحظ وسبحات البديع، وما لا يرون في غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة، فأقبلوا عليه إقبال الهيم على الورد الوحيد العذب».

(1) انظر مراجعات في الآداب والفنون ص 171. ط. المطبعة العصرية.

ومن هنا تعلق الناس به، لأنه ملاً فراغاً كان مطلوباً أن يُملأ، وشغلَ حيزاً، كان لا بُدَّ أن يُشغل، وأتى بالطريق الذي يُشوّق، وبالأسلوب الرصين، لأنه مدرسة جديدة، وصوت صادق متميز.

لقد احتلَّ أدبه القصصي مكانة بارزة، فاستحوذَ على أذهان القراء وعاطفتهم، واجتذبهم إليه حتى غدا المنافس الأول للقصيدة، فهو على ذلك أول من صنع جمهوراً كبيراً للفن القصصي، وحملَ القراء على اعتبار القصص والروايات نماذج أدبية عالية لا تقل روعة عن الشعر<sup>(1)</sup>.

فما كاد يجمع مقالاته في «المؤيد» ويضعها في كتاب حتى تهافتَ الناس على اقتنائها، فبيعَ من الطبعة الأولى منها سنة 1910م أكثر من عشرة آلاف نسخة. على ما ذكر الأستاذ الأديب فتحي رضوان<sup>(2)</sup>. وهو رقم لم يصل إليه عدد المبيع من كتب أكبر الكتاب إلا في القليل والنادر.

## روائع الأدب العالمي



لم يكتف «المنفلوطي» بكتابة القصص العربي الأصيل، أو بالموضوعات والمقالات التي تهتم المجتمع، وإنما اتجه إلى روائع الأدب العالمي ليقدمه للقارئ العربي في ثوب قصصي خلّاب.

ومعلوم أن «مصطفى لطفى المنفلوطي» لم يكن يعرف لغةً أجنبية معرفةً تمكنه من الترجمة الصحيحة، فكان يختارُ من يوقفه على خصائص العمل الأجنبي، أو من يترجم الرواية أو القصة ترجمة كاملة، ثم يقوم هو - بعد ذلك - بصياغته عملاً أدبياً عربياً في المشاعر والأحاسيس والسمات، وإن بقي الاسم أعجمياً.

(1) انظر الرسالة 386/6.

(2) انظر ذكريات الصبا فتحي رضوان مجلة الثقافة القاهرية عدد 29 ص 12.

ولا ضيرَ في الاستعانة بالمختصين، في مجال اللغات والترجمة ، ووضع هذه الترجمات أمام أصحاب البيان العربي لإعادة صياغته.

فكم من رجل عرفَ عدة لغات ، ولم يزدَه ذلك غيرَ رطانة لسانه ، واكتساب مفردات لغوية دون أن يمتدَّ أثر ذلك إلى إبداعه أو فنه.

فالمنفلوطي لم يتوفر على هذه الروايات العالمية من أصلها مباشرة وإنما قرأ ترجمات لها ينقصها حسن الصياغة العربية، فنقلها من الرواية ذات الأبواب والفصول والمشاهد وتوزيع الأدوار إلى القصة المحكَّاة بأسلوب أدبي طريف، وذلك بعد فهمه لأغراضها ومعانيها، فأحسن صياغتها وأجادَ تراكيبها ومبانيها. ومن بين روائع الأدب العالمي الذي حوله «المنفلوطي» إلي قصص رائع، والذي سنعمل تباعاً بإذن الله على إخراجه ودراسته:

1. الشاعر، للفرنسي الأديب «أدمون روستان».

2. الفضيلة ، للكاتب الفرنسي الشهير «برناردين دي سان بيير».

3. ماجدولين، لألفونس كار.

وغيرها من أعماله الأدبية العملاقة، النظرات ، والمختارات، وقد سبق أن أخرجنا له «العبرات».

أمَّا رواية «في سبيل التاج» - التي بين يديك - فسوف نفردها الآن بحديث موجز.

## في سبيل التاج



ألَّف «فرنسوا كوبييه» رواية «في سبيل التاج» باللغة الفرنسية وهي رواية تمثيلية لهذا الكاتب الفرنسي الشهير.

أما «فرنسوا كوبييه» فقد كفانا الأستاذ الأديب حسن بك الشريف الحديث عنه في تقدمته للرواية سنة 1920م وسوف تقرأ نصها بعد قليل.

أما الرواية فقد تناولها النقاد ودرسوها وأشادوا بها، لاسيما بعد أن لخصها «المنفلوطي» وحولها إلى قصة شائقة رائعة.

لقد أهداها «المنفلوطي» إلى «سعد زغلول باشا» زعيم الأمة- وصاحب الفضل الأكبر بعد الله على المنفلوطي من الناحية الوظيفية ومن ناحية العلاقة الحميمة التي ربطت بينهما - لأنها تحكي قصة بطل من أبطال «البلقان» كما أن «سعداً» عنده بطل من أبطال مصر والعالم العربي ولتشابه صفات البطلين.

فرواية «في سبيل التاج» تحكي قصة «قسطنطين» بطل الرواية الذي ورث الأخلاق الحميدة من والدته، والشجاعة والإقدام من والده، كان محباً لوطنه، ومخلصاً لوالده وعائلته، وهو في موقف البطولة يعيش صراعاً عنيفاً بين عاطفتين، بين عاطفة حب الوطن وحب الأسرة، وينتهي به الصراع إلى تقديم الوطن على والده، فضحى الأولى فداءً للثانية، ثم ضحى بنفسه فداءً لشرف أسرته المتمثل في والده «برانكومير» الخائن، ويدور فيها الصراع بين زوجة والده الأميرة «بازليدة» وبين بطل القصة «قسطنطين».

وفي هذه القصة أحداث وصراعات سوف ندعك تعايشها وتعلم تفاصيلها من خلال سرد «المنفلوطي» المبدع، لتدرك في النهاية أنك أمام قلم سيال نعى أمير الشعراء «شوقي» صاحبه بقوله حيث رثاه:

فُجِعَ الْبَيَانُ وَأَهْلُهُ بِمَصُورٍ      لَبِقَ بَوْشِي الْمَمْتَعَاتِ صَنَاعِ  
تَتَخَيَّلُ الْمَنْظُومَ فِي مَنْثُورِهِ      فَتَرَاهُ تَحْتَ رَوَائِعِ الْأَسْجَاعِ  
لَمْ يَجْحَدِ الْفُصْحَى وَلَمْ يَهْجَمْ عَلَى      أَسْلُوبِهَا أَوْ يُزْرَ بِالْأَوْضَاعِ  
لَكِنْ جَرَى وَالْعَصْرُ فِي مَضْمَارِهَا      شَوْطًا فَأَحْرَزَ غَايَةَ الْإِبْدَاعِ  
حَرَّ الْبَيَانِ قَدِيمِهِ وَجَدِيدِهِ      كَالشَّمْسِ جِدَّةَ رُقْعَةٍ وَشِعَاعِ

وذلك في قصيدة طويلة رائعة حين فجعت الأمة العربية الإسلامية بموت

الأديب الكبير «مصطفى لطفي المنفلوطي» سنة 1924م بعد معاناة من مرض «الشلل» فرحمةً ونوراً لروحه الطاهرة.

## وَقْفَةٌ لَابَدٍ مِنْهَا



تعد رواية «في سبيل التاج» من الناحية الفنيّة لا غبار عليها فهي قطعة أدبية صيغت بأسلوب أدبي رائع، أما من الناحية التاريخية فإنها تحمل الكثير من المغالطات التي يجب التنبيه عليها ، لأن تشويه التاريخ خيانة إنسانية ممجوجة..

فقد سُوه التاريخ الإسلامي على يد حفنة من المستشرقين الحاقدين وبعض نصارى الشام المشبوهين ، الذين قاموا بتشويه الدولة العثمانية، فهي تصور العثمانيين والأتراك على خلاف ما صورهم به كبار المؤرخين الأوروبيين المشهورين.

وقد صورتهم الرواية بأنهم كانوا قساة متعصبين، يهدمون الكنائس، حتى إن المسيحيين لم يجدوا مكاناً للصلاة إلا في الصحراء والفلوات ، وكى لا نُتهم بالتدليس أو التحامل ندع الردّ لمؤرخين وباحثين أوروبيين ، هم بالطبيعة متحاملون على الأتراك والعثمانيين ولكن الحقيقة بلغت من الوضوح حدّاً لم يستطع أحدٌ إنكاره.

فها هو "توماس أرنولد" يوازن بين ما يلقاه المسيحيون من الأتراك والعثمانيين، وما يلقاه المسيحيون بعضهم من بعض فيقول:

"إن المعاملة التي أظهرها العثمانيون للرعايا المسيحيين- بعد أن غزوا بلاد البلقان- لتدل على تسامح لم يكن مثله- حتى ذلك الوقت- معروفاً في سائر أوروبا، وإن أصحاب جالفن «Galvin» ، وأصحاب مذهب التوحيد، والبروتستانت نظروا إلى العثمانيين وتركيا بعيون الرغبة، وتمنوا أن يشتروا الحرية الدينية

بالخضوع للحكم الإسلامي!! لأنهم ذاقوا الأمرين من قومهم الذين يخالفونهم في المذهب.

ثم يشير إلى ما تتمتع به الكنائس التي تقع تحت السلطان العثماني من حرية، وما تلقاه من رعاية، وما يجده بطارقتها وقسستها من حماية، فيضرب مثلاً بـ “منقاريوس” بطريرك كنيسة “أنطاكيا”. وهي تحت النفوذ العثماني، وأنهم كانوا يدعون للعثمانيين بدوام البقاء فيقول: “أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد، فهم يأخذون ما فرضوه من جزية، ولا شأن لهم بالأديان، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم نصريين، يهوداً أو سامرة، وأنهم كانوا يدخلون في الإسلام طوعاً دون أدنى إكراه”.

أما “فولتير” الفيلسوف الفرنسي الشهير فقد وصف المنتصر المسلم والمنهزم البلقاني بقوله: “إن الأتراك لم يسيئوا معاملة المسيحيين كما نعتقد نحن، والذي يجب ملاحظته أن أمة من الأمم المسيحية لا تسمح أن يكون للمسلمين مسجد في بلادها إلا بشق الأنفس بخلاف الأتراك فإنهم سمحوا لليونان المقيهورين بأن تكون لهم كنائسهم، ومما يدل على أن السلطان محمد الفاتح كان عاقلاً حكيماً تركه للنصارى المقيهورين الحرية في انتخاب البطريرك، ولما انتخبوه ثبته السلطان، وألبسه الخاتم، وسلمه عصا البطارقة، حتى صرح البطريرك بقوله:

”إنني أخل مما لقيته من التبجيل والحفاوة، الذي لم يعمله ملوك النصارى مع أسلافي”.

والخلاصة: أنه لا يجوز لي الاسترسال في إثبات هذه الحقائق، لأننا نتعامل مع رواية أدبية لا مع بحث تاريخي، فالإيجاز والتنبيه هما المقصد حتى لا يقع قارئ الرواية في تصديق كذبات رفضها ثقافة المؤرخين، ومن أراد الزيادة في معرفة الحقائق التاريخية المتعلقة بهذه الفترة، فليرجع إلى أرشيف الدراسات العثمانية ففيه ما يثلج الصدر، ويثبت الواقع ويحطم الأراجيف.

وهل نسي العالم المآسي والمذابح التي جرت للمسلمين في دول البلقان من اضطهاد وتهجير ومذابح على يد متعصبي البلقان وخاصة الصرب المتعصبين الذين كانوا سببا رئيسياً في اندلاع الحرب العالمية الأولى حينما اغتال متعصب صربي ولي عهد النمسا وزوجته... مما تسبب في اشتعال الحرب العالمية الأولى والتي نتج عنها ملايين الضحايا وكانت آخر مذابح الصرب هي قتل ثمانية آلاف مسلم بدم بارد في سرينتشا في البوسنة على مرأى من العالم الذي يدعي الحفاظ على حقوق الإنسان.. ومطلوب من الأدباء تسليط الضوء على هذه المآسي والمذابح التي تلقاها المسلمون في البلقان على يد المتعصبين والمجرمين من هذه البلاد.. وحبذا لو صدرت أعمال أدبية من روايات وأفلام سينمائية وتسجيلية تسلط الضوء على هذه الفترة السوداء حتى تظهر حقائق التاريخ.

وفي الختام لا ننسى أن مؤلف هذه الرواية أديب فرنسي، تأثر بلا شك في مراحل تعليمه المختلفة بالأكاذيب التي تلقاها في كتب التاريخ المشوه عمداً عن الفترة العثمانية وغيرها من فترات التاريخ الإسلامي، وتشرب بدسائس وأحقاد المستشرقين والحاquدين من بني قومه، مما جعلنا نرد على الرواية من الناحية التاريخية، لاسيما وأن الدولة العثمانية نالت الكثير من السهام المسمومة.

وليس أدل على سماحة الدولة العثمانية أن اليهود لم يجدوا ملاذاً ولا ملجأً يعيشون في ظله بعد أن طردوا من أسبانيا ولاقوا ما لاقوا من اضطهاد وتهجير على يد محاكم التفتيش فلم يجدوا الحماية إلا عند العثمانيين.

## العمل والمنهج



لمن يكن لنا في هذا العمل سوى المقدمة الموجزة التي تتناسب مع حجم القصة ، وكذلك بيان بعض الكلمات التي تحتاج إلى توضيح ، سائلين الله العون على إخراج ما تبقى من تراث عملاق الأدب ” المنفلوطي “ بصورة تليق بأعماله ، سائلين الله الجزاء الحسن والتموية للأستاذ المهندس / مصطفى عاشور الذي شجعني على إخراج هذا التراث الأدبي الرائد .  
والله أسأل أن يوفق ويعين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

أبو هالة

عادل عبد المنعم أبو العباس

القاهرة 1435 هـ . 2014 م





## إهداء الرواية إلى البطل المصري العظيم سعد زغلول باشا

تشرُحُ هذه الروايةُ سيرةَ بطلٍ من أبطالِ الوطنيةِ العاليةِ ،  
قد جَمَعَ اللهُ له من صفاتِ الشجاعةِ والثباتِ والعزيمةِ والغيرةِ ،  
والإخلاصِ والتضحيةِ ما جَمَعَ لك منها ، فأذن لي أن أهدي ، روايتهِ  
إليك ، وأن أقدمَ البطلَ البلقانيِّ ، إلى البطلِ المصريِّ ، لتأنسَ روحُ  
كلِّ منكما بروحِ صاحبهِ وإن باعدَ بينكما الزمنُ ، واختلفتْ بكما  
الدارُ ، فإن تفضلتْ بقبولِ هديتي وما أحسبُك ضائناً بذلك عليّ ،  
فلتكنْ جائزتي عندك عليها أن تشهدَ لي بينك وبين نفسك أنني قد  
وضعتُ لبنةً<sup>(1)</sup> صغيرةً في ذلك البناءِ الضخمِ الذي شدتُهُ لأمتك  
ووطنك ، وحسبي ذلك وكفى .

**مصطفى لطفي المنفلوطي**

أول يونية سنة 1930

(1) اللبنة - واحدة اللبن - كلمة وكلم ، وهو المضروب من الطين مربعاً للبناء ، وهو المعروف بـ «الطوب» .

obeikandi.com



انصرفت عقولُ الكُتابِ والمفكرين  
 في هذه الأيام وفي جميع البلادِ  
 إلى الاشتغالِ بالمسائلِ السياسيةِ  
 والمشاكلِ الاجتماعيةِ التي أوجدتها  
 الحربُ الأخيرة، وانصرفت الأقلامُ  
 وراء العُقولِ تُحاولُ إنارةَ السبيلِ لقادةِ  
 الشُعبِ علَهم يستطيعون إقالةَ هذا  
 العالمِ من عَثْرَتِهِ.

ولقد كان من جَرَاءِ ذلك أن أهملَ الأدبُ إهمالاً نَزَلَ به إلى مَرْتَبَةٍ دُونَ التي  
 كان يشغلها في نفوسِ القراءِ والمؤلفين، فانحطَّ التأليفُ الأدبيُّ انحطاطاً قد  
 يستمرُّ ما استمرت حالةُ العالمِ على ما هي عليه.

ولم يكن تأثيرُ هذه الأزمةِ الأدبيةِ في مصرَ بأقلَّ منه في غيرها، إذ انصرفَ  
 معظمُ الأدباءِ عن فنِّهم وعلى الأخصَّ في السنةِ الأخيرةِ إلى الاشتغالِ بقضيتنا  
 السياسيةِ الكبرى، فانقطعَ ظهورُ الكتبِ الأدبيةِ أو كادَ، وأوشكتُ مسارحُ التمثيلِ  
 أن تُغلقَ أبوابها لقلَّةِ ما يُقدَّمُ إليها من الرواياتِ، ورأتُ صحفَ الأدبِ أن لا بقاءَ  
 لها إلا إذا وُلَّتْ وَجَّهَهَا شَطْرَ السياسةِ فَوَقَّفتْ جُلَّ (1) أعمدتها على شَرْحِ وتأويلِ  
 ما يحملهُ إلينا البرقُ من الأخبارِ، وبذلك وقفتْ نهضتنا الأدبيةُ منتظرةً أن تَمُرَّ  
 العاصفةُ وتصفوَ السماءُ فتستأنفَ سَيْرَها ويعودَ إليها عِزُّها ونشاطُها، بيدَ أن  
 العنايةَ الساهرةَ على الفنونِ قد أبَتَّ أن تَدْبُلَ شجرةَ الأدبِ في مصرَ ولَمَّا تَبَيَّعَ  
 أزهارها، فلم تدعِ السياسةُ تستأثرُ بأقلامِ جميعِ الكُتابِ، بل أبقتْ للأدبِ أئمتَهُ  
 وأنصارَهُ، فلم يُؤيسهم شغفُ الجمهورِ بسياسةِ العالمِ وانصرافُهُ عن كلِّ ما

(1) جُلَّ ، معظم.

عداها، وظلّوا رافعين لواءِ فنِّهم في وسطِ الزواجِعِ والأعاصيرِ عالمين أن الأدبَ أفيدُ (1) غذاء لروحِ الأمةِ وعقلِها، وأكبرُ مهذبٍ لإحساسها وشعورها.

وفي طليعة هذا النَّفَرِ من أئمة الفنِّ وخدامِه، لا أتردّدُ في ذكرِ اسمِ السيدِ «مصطفى لطفي المنفلوطي» الذي لم يبخُلْ على قُرَّائه العديدين (2) بأويقاتِ فراغِه فَوْقَها على الكتابةِ والتأليفِ ولم تَحُلْ أعمالُ وظيفتِه الحُكوميةِ بينه وبين أن يُخرَجَ للناسِ بضعَةَ مؤلِّفاتٍ قيِّمةٍ آخرُها هذه الروايةُ الشيخة الممتعة «في سبيل التاج» التي تُقدِّمُ اليومَ طبعَتها الرابعة (3) إلى جمهورِ القارئِين.

## التعريف بفرانسوا كوبيه



فرانسوا كوبيه مؤلف «في سبيل التاج» شاعر عرَكَ (4) صُرُوفَ الزمانِ وجَسَّ بأصبعِه مصائبَ الإنسانِ، فلم تزدْ قلبُه مناظرَ البؤسِ والفاقةِ إلَّا لينًا وحنانًا، حتى إن القارئَ لا يرى في شعرِه إلَّا عبرةً حارةً أرسلتْها عيناهُ إشفاقًا وحننًا على الذين تخطتْهم السعادةُ وغضبتْ عليهم الحياةُ، حتى لَقَبه عارفُوهُ بحقِّ «مُعزِّي المنكودين والبائسين، وشاعر الضعفاء والمحزونين»

ولد كوبيه سنة 1842م، ولم تُمكنه بِنِيَّتِه السقيمةُ من تَتِمِيمِ دراسَتِه، فانقطعَ عن تَلْقَى الدُّروسِ في معاهدِ العلمِ، وانصرفَ إلى قراءةِ الكُتُبِ والاطلاعِ على أوضاعِ الأقدمينِ، وكان يَشعُرُ بِمِيلٍ شديدٍ غريزي إلى الشَّعرِ، فنظَمَ منه بضعَ قصائدٍ لم تُصادفَ إعجابًا من الذين أَسَمَعَهُمْ إياها، فرأى أن النارَ أحقُّ بها من المطبوعةِ، فأحرقَها، وطلَّقَ الشعرَ وهجرَ الأدبَ، وسَعَى حتى حَصَلَ على وظيفةٍ في

(1) يريد ، أكثر فائدة ، فإن الفعل الرباعي لا يصاغ منه ، أفعال ، التفضيل .

(2) يعني ، الكثيرين ، واستعمال ، عديد ، بمعنى ، كثير ، خطأ شائع .

(3) هذه الطبعة الأخيرة هي التاسعة . قلت ، بل طبعت طبعات كثيرة نظرا لأهمية مؤلفات المنفلوطي .

(4) عرك ، خبز وجرّب .

الحكومة استولى عليها ظناً أنه لم يُخَلَقْ لصناعة القلم، وأنَّ رغبته في الشعر ما هي إلا نزعة مفتون تصبوا نفسه إلى ما لا قبل له به ولا طاقة له عليه.

بيد أن الفطرة ما لبثت حتى غلبت اليأس في نفس الشاب، فعاد إلى القصائد ينظم منها اليوم ما يمزقه في الغد، حتى وُقِّقَ لكتابة «صندوق البقايا المقدسة» (Le Reli Puaire) ونشره بين الناس فصادف رواجاً وإقبالاً شجعاه على الاستمرار والمثابرة، وزادته تشجيعاً أن صارت بعض منظوماته تتلى على المسارح وفي الحفلات، وما زالت شهرته تنمو حتى اهتمت بشأنه إحدى الممثلات الشهيرات (مدام أجار) ورأت فيه قابلية للتأليف التمثيلي، فنصحت إليه بكتابة شيء للمسرح، فعمل بنصيحتها وكتب «عابر السبيل» (Le Passant) وهي رواية ذات فصل واحد، ما كادت تظهر حتى تخاطفتها المسارح ومثلتها (سارا برنار) فطار صيت المؤلف الشاب وذاعت شهرته، وأقبل عليه مديرو المسارح يلتمسون منه المزيد.

ومن سنة 1868 م نشر كتباً شعرية متتابعة أهمها «المودات» (Intimités) و«اعتصاب الحدادين» و«المتواضعون» وبعض قصص نثرية منها «المجرم» (Toueune) و«شبوويه» (Jeunesse) وكثير من الروايات التمثيلية، نخص بالذكر منها «عواد كريمون» (Le Luthier de Grênone) و«مدام ده مانتون» و«سيفير ونوريلى» و«في سبيل التاج».

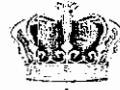
وفي عام 1884 م انتخب عضواً بمجمع علماء فرنسا، ثم انكب على السياسة، وسار فيها شوطاً بعيداً كاد يُنسيه الشعر والأدب، وتوفي سنة 1908 م وهو رئيس فخري لجميع الوطن الفرنسية. (1)

هذا ملخص حياة ذلك الشاعر النابغة الذي امتاز على أقرانه بأنه لم يُقلد أحداً من الأوائل ولا من المعاصرين (والتقليد يكاد لا ينجو منه شاعر من الشعراء) وبأن معظم المواضيع التي طرقتها كانت إلى عهده جديدة لم يتقدم إليها قبله أحد من المؤلفين، ولقد قال عنه أناتول فرانس ما معناه:

(1) النسب إلى فرنسا، فرنسي.

«إن نَفَثَاتِ قَلَمِ هَذَا الشَّاعِرِ قَدْ أَثَرَتْ فِي جَمِيعِ الْقُلُوبِ وَتَمَكَّنَتْ مِنْهَا ، لِأَنَّ أَسَاسَهَا الطَّبِيعَةُ ، وَأَحْسَنُ مَا يَبْرَعُ فِي الْكِتَابَةِ عَنْهُ وَيَصِلُ فِيهِ إِلَى أَعْلَى طَبَقَاتِ الْبَلَاغَةِ مَا كَانَ لَهُ مَسَاسٌ بِالشَّاعِرِ وَالْأَخْلَاقِ الْعَامِيَّةِ وَالْحَقَائِقِ الْوَاقِعَةِ ، وَهَذَا النُّوعُ مِنَ الْكِتَابَةِ لَا يَتَيْسَرُ إِلَّا لِأَصْحَابِ الْأَذْوَاقِ السَّلِيمَةِ وَالذِّكَاةِ الْمَتَوَقِّدِ الْخَارِقِ ، وَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَى مَهَارَةٍ فَائِقَةٍ وَبِرَاعَةٍ زَائِدَةٍ ، فَإِنْ أَقَلَّ خَطَأٌ فِيهِ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَبْدُوَ لِلْعَيَانِ مَجْسَمًا ، وَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ فِي اسْتِطَاعَةِ كُلِّ إِنْسَانٍ مَهْمَا كَانَتْ مَنْزِلَتُهُ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَفْهَمَ هَذَا الشَّاعِرَ وَيَتَأَثَّرَ بِأَغْرَاضِهِ وَمِرَامِيهِ ، وَلَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُ (1) أَنْ يَسْبِرَ كُنْهَهُ وَيَتَذَوَّقَ طَعْمَ أَدْبِهِ إِلَّا مَنْ رَزَقَ حِظًّا وَاقْرَأَ مِنَ الْعِلْمِ وَالذَّوْقِ السَّلِيمِ ، وَبِالْجُمْلَةِ فَقَرَّاءُ هَذَا الشَّاعِرِ الْعَظِيمِ كَثِيرُونَ جَدًّا وَمِنْ جَمِيعِ الطَّبَقَاتِ ، وَلَكِنْ قَرَّاءَهُ الْحَقِيقِيِّينَ قَالِيلُونَ».

## الرواية



أما رواية «في سبيل التاج» التي نحن بصددنا فمأساة شعرية تمثيلية وضعتها المؤلف في سنة 1895 م وأراد أن يجارى بها عميدي الشعر التمثيلي في القرن السابع عشر: كورني، وراسين، وهي رواية أخلاقية بطلها فتى تعارضت في نفسه عاطفتان قويتان: حُبُّ الأسرة، وحُبُّ الوطن؛ فضحى الأولى فداءً للثانية، ثم ضحى حياته فداءً لشرف الأسرة، ولقد تجلّت في هذه المأساة عبقرية الشاعر ومواهبه الكبيرة، فالأسلوب سهل ممتنع، والأفكار متسلسلة متماسكة، والوقائع جلية واضحة، وأخلاق أشخاص الرواية تُفسرُها أقوالهم وحركاتهم فلا غموض فيها ولا إبهام.

ولقد ذهب النقاد في تقدير هذه المأساة مذاهب شتى حتى قال بعضهم: إنها خير ما أخرج للناس من عهد راسين إلى يوم ظهورها.

(1) هذا التعبير غير معروف في العربية، وهو من الأخطاء الشائعة على ألسنة الكتاب.

قال الأستاذ «إيميل فاجيه» العُضُو بالمجمع العلميِّ الفرنسيِّ عن هذه الرواية في الجزء الثالث من كتابه «آراء في التمثيل» ما معناه: إذا نظرنا إلى ما في الفصول الثلاثة الأولى من القوَّة والمتانة والوضوح مع البيان والبلاغة وحُسن التصوير: أمكننا أن نحكم بأن هذه الرواية ستُمثِّل إلى ما شاء الله بدون أن يملها الجمهورُّ أو يشعر بسأم من سماعها، وأن «فرانسوا كوييه» بكتابتها للفصل الثالث منها على الأخصَّ قد ضَمِنَ لذكراه الخلود في ذاكرة الأجيال المقبلة. وهو الفصلُ المُعَنَّوَنُ في التعريبِ بِعنوانِ «الجريمة».

وقال الأستاذ «جول لومتر» العُضُو بالمجمع العلميِّ الفرنسيِّ في الجزء التاسع من كتابه «خواطِر في التمثيل» بعد أن أطنب في وصفِ شاعريَّة كوييه وفي تقديرِ مواهبه: إنَّ رواية «في سبيلِ التاج» لَهَى من صُنْع فتى قدير وشاعر عظيم ورجل ذي ضمير حي وقلب كبير، وإذا كان فيها بعضُ النقص فهذا النقصُ لم يُخلُ منه كورني ولا فيكتور هوجو ولا غيرهما من كبارِ الفنيين.

وقال في موضعٍ آخر من نفسِ الكتاب: إنَّ المُشاهدَ لتمثيلِ رواية «في سبيلِ التاج» لَيَشْعُرُ منذُ الهنيهة الأولى براحة واطمئنان ثم لا يلبث حتى يتأكد أنه سيشاهدُ عملاً مُتقناً وفناً نظيفاً، ولقد يَكونُ أحسنَ ما في هذه القطعة تَسْيِيقُ الأفكارِ وتحليلِ العواطفِ وترتيبِ الحوادثِ وتصويرِ النفوسِ والأشخاصِ.

هذا رأيُ كبيرين من زعماءِ الحركةِ الأدبيةِ في فرنسا نُورِدُهُ هنا ليعلمَ القراءُ منزلةَ هذه الروايةِ من نفوسِ الأدباءِ في الغربِ ومبلغَ تقديرهم لمؤلَّفيها.

ولقد تناول السيد «مصطفى لطفي المنفلوطي» هذه المأساة ونقلَ موضوعها إلى اللغةِ العربيَّةِ في قالبِ روائيِّ جميل بعد أن أضافَ إليها أشياءَ وحذفَ منها أخرى، وأخرجها لقراءه قصةً يستهوي أسلوبها القلوبَ وتسترعي وقائعها الأبوابَ بقلمِ عذبٍ وعبارة رقيقةٍ ودباجةٍ بدیعة لا نُطيلُ الكلامَ في وصفها لأنَّ قراءَ العربيَّةِ جميعاً يعرفونها لهذا الكاتبِ العظيمِ ويعترفون له بها، ولم يفتَهُ أن ينقلَ إلى العربيَّةِ قطعاً كاملةً من الروايةِ يستطيعُ القارئُ أن يتبيَّنَ منها قوَّةَ المؤلِّفِ، ومع أن الروايةَ ملخضةٌ تلخيصاً فقد استطاعَ الكاتبُ بمهارةٍ فائقةٍ أن يصوِّرَ

الرُّوحَ الأَصْلِيَّةَ للمؤلف تصويرًا مؤثراً، وأن يملك من نفوسِ قراءِ العربيةِ ما ملكه فرانسوا كوبيه من نفوسِ قراءِ الفرنسيَّةِ.

ولا يفوتنا هنا أن نقول إنَّ الكاتبَ قد اشتغل بتلخيص هذه الرواية في إبان الحركة الوطنية الأخيرة، ولقد أوحَتْ إليه الحوادثُ السياسية التي لا تزال ماثلةً في الأذهانِ صفحاتٍ تفيضُ وطنيةً وغيرَةً حتى لكانه قد أفضى إلى أمته في هذا الكتابِ بكثير مما لا يستطيع كتابته في الصحفِ السياسية، والحقُّ أقولُ إننا كثيراً ما كنا نعتبُ عليه في سُكوته عن الاشتراك بقلمه مع العاملين في هذه الحركة حتى قرأنا هذه الرواية فإذا رُوحه الوطنية الشريفة تسيلُ فوق صفحاتها سيلاً، وإذا الروايةُ روايةُ الحركةِ الحاضرةِ بجميعِ ظروفِها ومتعلقاتِها.

وبالجملِة فروايةُ «في سبيل التاج» كتابُ الوطنيةِ الخالدةِ في ثوبِ قصةِ خيالية تملكُ لبَّ القارئِ بجمالها وتتولى تهذيبَ نفسه بأدابها وفضائلها، وما أَحوجنا أن تجرِيَ الأقلامُ الأدبية في هذا العصرِ بمثل ما جرى به قلمُ السيد «المنفلوطي» في هذه المأساة المؤثرة ليتلقى النشءُ الحديثُ دروسَ وطنيته من طريقِ العواطف والوجدان، وقلما تصلُ الوطنيةُ إلى أعماقِ القلوبِ وتتغلغلُ في شغافها إلا من هذا الطريقِ.

حسن الشريف

أول يونيه سنة 1920م



لا يزال التاريخُ يحفظُ في صفحاته  
حتى اليوم تلك الوقائعَ الجريئةَ الهائلةَ

التي وقعتْ في القرنِ الرابعِ عشرَ بين  
الدولةِ العثمانيةِ والشعوبِ البلقانيةِ أيامَ

أغارَت الأولى على الثانية تُريدُ افتتاحَها والاستيلاءَ عليها، فدافعت الثانية عن نفسها دفاعاً مجيداً استمرَ زمناً طويلاً حتى غلبت على أمرها فسقطت في يد القوة القاهرة، ودخل الترك أرضَ البلقان وحولوا كنائسها إلى مساجدَ وفرضوا على أهلها الإتاوات الثقيلة<sup>(1)</sup>، وعزلوا ملكها الذي كان يحاربهم ويثأرهم وملكوا عليها ملكاً من أهلها اسمه «ميلوش» فلبثت في حكم الأتراك عهداً طويلاً عانت فيه من ضروب الذلِّ والهوان ما يعانيه كلُّ شعب مغلوب على أمره، حتى قيض الله لها رجلاً من رجال الدين المخلصين اسمه الأسقفُ «أتين» عزَّ عليه ضياع بلاده وسقوطها في يد أعدائها وأن تتحول فيها الكنائسُ إلى مساجدَ وتجرأ في أرجائها أصواتُ المؤذنين بدلاً من أصوات النواقيس، وألا يجد المسيحيون في عُقر ديارهم مكاناً يؤدون فيه فروض صلواتهم غير الصحاري والفلوات<sup>(2)</sup> فأخذ يتنقل في أرجاء البلاد ويمشي بين شعوبها وقبائلها يدعو باسم الدين مرةً والوطنيةً أخرى، ويستنهض همم الرجال للدفاع عن وطنهم وتحرير بلادهم من يد ذلك القاهر المغتصب حتى جمع كلمة الأمة كلها من حوله على اختلاف عناصرها ومذاهبها، وكذلك تنفق كلمة الأمة أمام الخطرِ الداهم والقضاءِ الشامل.

ثم أشار على ملكه أن يخلع طاعةَ التركِ ويتردَّ رعاياهم من بلاده ويمتنع عن دفع الجزيةِ والإتاوةِ ويُنَادى بحريةِ البلقان واستقلاله، فجبَّ الملكُ عن

(1) الإتاوة، الخراج والجزية، وتقابل في الوقت الحاضر ما يفرضه الغالب على المغلوب من غرامات حربية، وهي مقابل الدفاع والحماية، فإذا انخرط مواطنوهم في الجيش والدفاع عن الوطن سقطت الجزية.

(2) وهذا تدليس من الناحية التاريخية بشهادة المؤرخين الثقة من بني جلدتهم وقد ذكرنا ردهم على هذا التدليس في المقدمة.

ذلك في أول الأمر ثم أسلَسَ له وأذعنَ لرأيه، ففعل ما أشار به عليه: فأخذ ذلك الترك وأسفَهُمْ واستثارَ حقدَهُمْ وضغِينَتَهُمْ ، فوجهوا إلى البلاد البلقانية جيشاً عظيماً وافراً العُدَّة والعَدَدَ بقيادة أحد أبطالهم العظام «أرطغرل باشا» فثار البلقانيون جميعاً رجالاً ونساءً للدفاع عن أنفسهم والذود عن وطنهم، واختاروا لقيادة جيشهم القائدَ البلغاريَّ العظيمَ الأميرَ «ميشيل برانكومير»، فظل يحارب الأتراكَ عدَّةَ أعوامٍ يدالُّ له عليهم فيها ويدالُّ لهم عليه (1)، ولكنهم لا يستطيعون اجتيازَ حدودِ بلاده واقترحامَ جبالها، حتى عَيَّ القائدُ التركيُّ بأمره ورأي أن لا حيلةَ فيه ، إلا من طريق الدسيسة والكيد، وكذلك فَعَلَ.



(1) يتداولون النصر والهزيمة.



## اجتمع

جنود الفرقة البلقانية ذات ليلة في معسكرهم يشربون ويطربون ويرقصون على نغم قيثارة الموسيقى البوهيمي المسكين «بانكو» الذي كان يقد إلى معسكرهم كل ليلة يغنيهم قطعاً حماسية مؤثرة يُذكرهم فيها بمجد وطنهم وتاريخه العظيم، فيرقصون على غنائها ويطربون ويحسنون إليه بما فضل من زادهم وشرابهم، ثم جلسوا بعد فراغهم يتحدثون في شأن ذلك الحادث العظيم الذي حدث في بلادهم منذ أيام، وهو موت الملك «ميلوش» وعزم الجمعية الوطنية على الاجتماع للنظر فيمن يخلفه على العرش من بعده، فانقسموا في رأيهم قسمين: فريق يرى اختيار الأسقف «أتين»، وفريق يرى اختيار القائد «برانكومير»؛ فقال الجندي الروماني «أورش» وهو من أشياع الأسقف وأنصاره: «نعم إن النصر قد تم لنا على يد قائدنا العظيم ميشيل «برانكومير»، ولكن من الذي مهد له النصر وأعد له عدته قبل أن يعقد له اللواء على الجيش؟ أليس الأسقف أتين؟

من الذي يُنكر أن ذلك الرجل التقى الصالح هو الذي طاف البلاد من أقصاها إلى أقصاها عشرة أعوام كاملة يستنهض الهمم ويستثير حفاظ (1) النفوس، ويستحي ميت العزائم، ويهيج عاطفة الثأر والانتقام في نفوس الرجال والنساء والفتيان والفتيات، ويلقي على تلاميذ المدارس في مدارسهم أناشيد الحرية والوطنية فيستظهرونها مع دروسهم ويتغنون بها في مسارحهم وملاعبهم ومغداهم ومراجهم (2)؟

من الذي يُنكر أنه هو الذي علم الشعب البلقاني دروس الوطنية الشريفة

(1) الحفاظ، الأحقاد، واحداها، حفيظة.

(2) مغداهم ومراجهم، غدوهم ورواجهم، صباحا ومساء.

العالية، وعرّس في قلوبهم أن الحياة الذليلة خيرٌ منها الموتُ الرُؤَام ، وأن الحرية حياة الأمم وروحها ، والرقُّ موتها وفناؤها، وأن الأمة التي ترضى بضياع حريتها واستقلالها وتقبل أن تضع يدها في يد غاصبها إنما هي أخطُ الأمم وأدناها وأحقها بالزوال والفضاء؟

ولم يزل يُفيض على نفوسهم من نفسه تلك الروح الوطنية العالية، ويُملي عليهم أمثال هذه الآيات الذهبية الشريفة، حتى صفت ضمائرهم من أدراهِ الذلِّ والمهانة، وأدركوا من معنى الحياة ما لم يكن يُدرکه آبائهم من قبل ، فأصبحوا كما تراهم اليوم حُماة الوطنِ وذادته<sup>(1)</sup>، يبذلون في سبيله من ذات أيديهم وذات نفوسهم ما لا يبذل مثله إلا الأمم الراقية الشريفة في سبيل الذود عن مجدها والدفاع عن حريتها واستقلالها، ويتقدمون إلى الموت زرافات ووحداناً<sup>(2)</sup> فرحين متهللين كأنهم ذاهبون إلى مرقص «فيدين» وملاعبها. لأنهم يعلمون أن قطرات الدماء التي يبذلونها في سبيل حريتهم واستقلالهم إنما هي المداد الأحمَر الذي تُسجَل لهم به في صفحات تاريخهم آياتُ المجد والفخار. وأن الأشلاء<sup>(3)</sup> التي ينثرونها في تربة وطنهم ثم يسقونها من دمائهم إنما هي البذور الطيبة التي تُنبِت لبلادهم المستقبل الحرَّ الشريف.

من منا يجهل أنه هو الذي استطاع وحده من بين أبناء البلقان جميعاً أن يقف أمام ملكه وقفة الأسد الهُصور ويصيح في وجهه قائلاً له : حتى متى أيها الملك الضعيف المهينُ تبيع وطنك وأبناءه لأعدائك وأعدائه بيِّع السِّلَع المعروضة في حوانيت التُّجار بأبخس الأثمان وأدناها؟ وإلّا تَضَع هذه السلاسل والأغلال في أعناق أبناء أمّتك لتقودهم بها إلى حيث يُمرِّغون جباههم الشريفة تحت مواطئ أقدام ذلك العدو المغتصبِ صاغرين ضارعين ، ثم تزعم بعد ذلك أنك ملكٌ عظيمٌ جالسٌ على عرش شريف، ولو حققت أمرك لعلمت أنك نخّاسٌ دنيءٌ يبيِّع الرقيق في سوقِ النّخاسة<sup>(4)</sup>، بل أدنى من نخّاس، لأن النخّاس لا يتجرُّ في

(2) زرافات ووحداناً، جماعات وآحاداً.

(1) النّادة، جمع ذائد؛ ذاد بذود، دافع يدافع

(3) الأشلاء، الأعضاء، مفرداها : شلو.

(4) النخّاس، تاجر الرقيق، والنخّاسة حرفته.

أبناء أُمَّته ولا في أفراد أُسرته فاهتزَّ الملكُ لكلمته هذه اهتزازَ القَصْبَةِ الجَوْفَاءِ  
بَيْنَ مَهَابِّ الرِّيحِ، وطَاطَأَ لَهَا رَأْسُهُ إِجْلَالًا وَإِعْظَامًا، ولم يلبث أن عزمَ عَزْمَتَهُ  
الشَّرِيفَةَ الَّتِي تَرَوْنَهَا اليَوْمَ وَالَّتِي أَنْقَذَتِ الوَطْنَ مِنَ العَارِ وَرَفَعَتُهُ إِلَى ذِرْوَةِ المَجْدِ  
وَالفَخَارِ».

وَهُنَا ضَجَّ القَوْمُ جَمِيعًا ضَجَّةَ السَّرورِ وَالاستِحسانِ وَصاحوا: أَحسنتِ يَا  
أورش، أَحسنتِ إِحسانًا عَظِيمًا. إِلا نَفَرًا قَلِيلًا مِنْ أَشِياعِ القَائِدِ وَصَنائِعِهِ، فَإِنَّهُمْ  
امْتَعَضُوا لِهَذِهِ الكَلِمَةِ وَغَضُّوا بِهَا (1)، وَقَامَ أَحدهُمْ وَأَسَمَهُ «لَا زَار»، وَكَانَ الحَارِسَ  
الخاصَّ لِقَصرِ القَائِدِ وَأَمِينَهُ وَمَوْضِعَ ثِقَتِهِ وَثِقَةَ زَوْجَتِهِ الأَمِيرَةِ «بازيليد»، وَطَلَبَ  
الإِذْنَ فِي الكَلَامِ فَأَذِنُوا لَهُ، فَقَالَ «إِنِّي لا أريدُ أَنْ أَعترضَ عَلَى صَدِيقِي أورش  
فِي كَلِمَتِهِ الَّتِي قالها فِي فَضْلِ أَسْقُفِنَا العَظِيمِ وَأَثَرِهِ الجَلِيلِ فِي خِدمَةِ الدِّينِ  
وَالوَطَنِ، وَلَكِنَ الَّذِي أَرَاهُ وَأَسْتَصِوبُهُ أَنْ لِرِجالِ الدِّينِ شُؤُونًا خَاصَةً بِهِمْ لا يَجْمَلُ  
بِكِرَامَتِهِمْ أَنْ يَتعدَّوْها إِلى غَيرِها مِنْ أَعمالِ الحِياةِ، وَإِنِّي أَضُنُّ بِأَسْقُفِنَا العَظِيمِ  
أَنْ تَشغَلَهُ مِشاغِلُ المُلْكِ وَمَلاهيهِ عَنِ شُؤُونِ الدِّينِ الَّتِي تَصُوبُ لَهَا نَفْسُهُ طَوِيلَ  
حِياتِهِ، وَالرَأْيُ الَّذِي أَرَاهُ أَنْ يَعْهَدَ المُلْكَ إِلى القَائِدِ «مِيشيلِ بَرانكومير» لِيَقودَ  
الأُمَّةَ جَمِيعَها بِتلكِ السِّياسَةِ الحَكِيمَةِ الرَّشِيدَةِ الَّتِي قادَ بِها الجِيشَ وَرَفَعَهُ إِلى  
مَنَاطِ السَّمائِكَ الأَعلى.» فَاعترضه جَنديٌّ كانَ جالِسًا عَلَى مَقَرَبَةٍ مِنْهُ وَقَالَ لَهُ:  
«وَلِمَ لا تَضُنُّ بِالقَائِدِ مِيشيلِ أَنْ تَشغَلَهُ مِشاغِلُ المُلْكِ وَمَلاهيهِ عَمَّا هُوَ بِسَبيلِهِ مِنْ  
قِيادةِ الجِيشِ وَتَدبِيرِ شُؤُونِهِ؟» فَأجاب: «إِنَّ قِيادةَ الجِيشِ وَزِعامَةَ المُلْكِ أَمْرانِ  
مِتشابِهانِ لِأنَّهُما يَتعلِّقانِ بِشُؤُونِ الحِياةِ وَأَعمالِها؛ أَمَّا الشُؤُونُ الدِّينِيَّةُ فَلا عِلاقَةَ  
لِها بِالشُؤُونِ الدُّنْويَّةِ بِحالٍ مِنَ الأحوالِ؛ فَدَعَّوْا الكاهِنَ مُسْتَرِيحًا فِي مَعبَدِهِ،  
مِستَغْرِقًا فِي صَلواتِهِ وَعِباداتِهِ، وَاخْتارُوا لِمُلْكِكُمْ رَجُلًا للأُمَّةِ وَبِطَلْها وَحامِيَ  
ذِمَارِها وَحامِها الأَميرَ «بَرانكومير» فَعلتْ أَصواتُ الصَّاخِبِينَ وَالصائِحِينَ،  
والمِستَحسِنِينَ وَالمِستَهجَنِينَ، وَذَهَبَ كُلُّ فِي صِيحَتِهِ المَذهَبِ الَّذِي يَراهُ وَيَتَشَيَّعُ  
لَهُ.

(1) غصوا بها، أخذتهم الغصة، كم يشرق الشارب بالماء أو الأكل ببعض الطعام وهي الشرقة.

وإنهم كذلك إذا بصوت صارخ في وسط هذه الضوضاء يقول: «استمعوا مني أيها القوم كلمة واحدة هي فصل الخطاب في قضيتكم هذه، ولا أطلب إليكم أن تستمعوا مني سواها»، فالتفت الجمع فإذا الضابط «ألبير» وهو جندي شيخ عرف القائد برانكومير صغيراً وخدمه كبيراً وعاش معه في منزله في عهد زوجته الأولى كأنه أحد أفراد أسرته، ولم يفارقه إلا منذ عامين اثنين: أي بعد وفاة زوجته بأيام قلائل؛ فأنصتوا إليه فإذا هو يقول: «أنتم تعلمون جميعاً صلتي بالقائد برانكومير ومكانتي عنده، واني أعرف من شؤونه الخاصة والعامة ما لا يعرفه أحدٌ غيري، ولقد عرفت فيما عرفت من خلائقه وسجاياها بعد تجربة عشرين عاماً قضيتها في خدمته، أنه أبعده الناس جميعاً عن مطامع الحياة ومظاهرها وأرغبهم عن سفاسف الأمور ودناياها، وأنه جندي صميم معتز بجنديته وشطفها وخشونة العيش فيها، لا يؤثر عليها أي مظهر من مظاهر الحياة مهما علا شأنه وعلت قيمته؛ فمن ظن منكم أنه يرضيه ويجامله بترشيحه لمنصب الملك فقد أخطأ في ظنه خطأ عظيماً، وإن كان للأسقف «أتين» مزاحمٌ على الملك بين أشرف البلقان وسادته فهو غير القائد «برانكومير». فهدأت الأصوات وسكنت الضوضاء عند سماع هذه الكلمة الهادئة الرزينة التي ينطق بها جندي شريف صادق، وكادت تكون فصل الخطاب في القضية، لولا أن «أورش» - وهو ذلك الجندي المتشيع للأسقف والداعي له - قد نهض من مكانه مرة أخرى ونظر إلى الجندي «ألبير» مبتسماً ابتسامة الهزء والسخرية، وقال له: «نعم يا سيدي إنك صادق فيما تقول، لم تزد حرفاً على ما تعرف ولم تنقص، ولكن ائذن لي أن أقول لك إنك إنما تحدث في كلامك عن الماضي القديم الذي حضرته وشاهدته، أما الحاضر فلا تعرف منه شيئاً، فإن أدنت لي حديثك عنه وقلت لك إن الأمير برانكومير اليوم غيره بالأمس، وإن تلك النفس العالية المترفعة التي كنت تعرف بالأمس مكانها من بين جنبيه قد استحالت اليوم إلى نفس تواقفة متطلعة تصبو إلى المعالي وتفتتن بالعروش، وإنه هو الذي يدعو بنفسه إلى نفسه ويرسل الدعاء في كل مكان لتأييده ومساعدته على نيل الملك.» فاستطير ألبير غضباً وقال: «أتريد

أَنْ تَقُولَ إِنَّ أَخْلَاقَ قَائِدِنَا قَدْ تَغَيَّرَتْ، وَإِنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ رَجُلًا صَغِيرَ النَّفْسِ مُتَبَدِّلًا؟  
 قَالَ: «لَا، مَا إِلَى هَذَا ذَهَبْتُ، وَلَكِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ: إِنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ مُنْقَادًا فِي شُؤُونِ  
 حَيَاتِهِ لِرَأْيِ غَيْرِهِ لَا لِرَأْيِ نَفْسِهِ، وَرَبِمَا لَوْ تَرَكْتُ وَشَأْنُهُ لَكَانَتْ لَهُ فِي حَيَاتِهِ خُطَّةٌ  
 غَيْرُ هَذِهِ الْخُطَّةِ الَّتِي يَنْتَهِجُهَا الْيَوْمَ». فَانْتَقَضَ الْقَوْمُ وَاضْطَرَبُوا وَنَظَرُوا بَعْضُهُمْ  
 فِي وَجْهِ بَعْضٍ، وَمَشَتْ الِهْمَسَاتُ بَيْنَ الْأَفْوَاهِ وَالْأَذَانِ، وَسَمِعَ الْخَطِيبُ اسْمَ  
 «فُسْطَنْطِين» يَتَرَدَّدُ مَرَارًا فِي أَفْوَاهِ الْهَامِسِينَ، فَصَاحَ فِي الْقَوْمِ: «أَنْتُمْ مَخْطُئُونَ  
 جَمِيعًا فِيمَا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ. فَإِنَّ ابْنَ قَائِدِنَا وَزَهْرَةَ شَبِيبَتِنَا وَضَابِطَ فَرَقَتِنَا أَعْلَى  
 هِمَّةٍ مِمَّا تَظُنُّونَ». فَصَرَخَ لِأَزَارِ: «قُلْ مَنْ هُوَ الشَّخْصُ الَّذِي تَرِيدُ؟» فَجَلَسَ أَوْرَشُ  
 وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، إِلَّا أَنَّهُ هَمَسَ فِي أُذُنِ جُنْدِي كَانَ بِجَانِبِهِ: «الزَّوْجَةُ الْجَدِيدَةُ»!  
 فَسَرَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ بَيْنَ الْجُمُوعِ سَرِيانَ الْكَهْرَبَاءِ فِي أَسْلَاحِهَا حَتَّى بَلَغَتْ مَسْمَعَ  
 الْمَوْسِيقَارِ بَانِكُو، فَفَرَقَتْ لَهَا عَيْنَاهُ بَرِيقَ الْفَرَحِ وَالسَّرُورِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَوْسِيقَارًا  
 بُوْهِمِيًّا كَمَا زَعَمَ، وَلَمْ يَكُنْ اسْمُهُ بَانِكُو كَمَا يُسَمُّونَهُ، بَلْ هُوَ الضَّابِطُ الْمَشْهُورُ  
 «إِبْرَاهِيمَ بَك» أَحَدُ أَرْكَانِ حَرْبِ الْقَائِدِ التُّرْكِيِّ الْعَظِيمِ «أَرْطَغْرُلْ بَاشَا»، وَقَدْ وَجَدَ  
 فِيهِ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الَّتِي سَمِعَهَا مَا كَانَ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ، وَعَثَرَ بِالنُّثْمَةِ (1) الَّتِي يَنْحَدِرُ  
 مِنْهَا إِلَى أَغْرَاضِهِ وَمَأْرَبِهِ.

وَمَا أَوَى الْقَوْمُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَأَخَذَ النَّوْمَ بِمَعَاقِدِ أَجْفَانِهِمْ حَتَّى دَبَّ ذَلِكَ  
 الْجَاسُوسُ الْمَتَنَكِّرُ عَلَى يَدَيْهِ حَتَّى بَلَغَ مَضْجِعَ الْجُنْدِيِّ لِأَزَارِ حَارِسِ قَصْرِ الْقَائِدِ  
 وَمَوْضِعِ نَفْسِهِ وَأَكْبَرَ أَشْيَاعَ زَوْجَتِهِ وَأَنْصَارِهَا، فَأَضْطَجَعَ بِجَانِبِهِ وَظَلَّ يَهْمَسُ فِي  
 أُذُنِهِ سَاعَةً طَوِيلَةً كَانَ يَتَرَدَّدُ فِيهَا اسْمُ الْأَمِيرَةِ بَازِيلِيدِ زَوْجَةِ الْقَائِدِ الْجَدِيدَةِ،  
 حَتَّى تَمَّ لِهَمَا الْإِتْفَاقُ عَلَى مَا يُرِيدَانِ، ثُمَّ أَسْلَمَا عَيْونَهُمَا إِلَى الْكَرَى فَنَامَا.



(1) النُّثْمَةُ: الثَّقْبُ، وَالْمَدْخَلُ فِي جِدَارِ الْحِصْنِ.

## قُسطنطين



### تُوفِيَتْ

زوجةُ الأمير برانكومير منذ عامين، وكانت امرأةً من النساءِ الصالحاتِ القانتاتِ ذواتِ النفوسِ العاليةِ والهممِ الكبرى؛ فَوَرِثَ ابْنُهَا قُسطنطين عنها هذه الأخلاقَ الكريمةَ، كما وَرِثَ عن أبيه صفاتِ الشجاعةِ والعزيمةِ والصبرِ واحتمالِ المكارهِ في سبيلِ خدمةِ الوطنِ والأمةِ، فكان خَيْرَ ابنِ لخيرِ أبٍ وأمٍ، (وكان يدُ أبيه اليُمْنى وِدْرَعَه الواقيةَ الأمانةَ) في جميعِ وقائعِهِ ومشاهدِهِ، حتَّى ذاع صيتهُ في جميعِ أنحاءِ المملكةِ وأحبَّه الشعبُ والجندُ حُباً كاد يرفعهُ إلى ما فوق منزلةِ أبيه، لولا حُرْمَةُ الأبوةِ وجلالُ الشيوخوخةِ ومكانُ التاريخِ، فلما ماتت أمه تزوجَ أبوه من بعدها فتاةً يونانيةً اسمُها بازيليد، يقالُ إنها من سُلالةِ قياصرةِ بيزنطيةِ «القُسطنطينية» وهي فتاةٌ جميلةٌ ساحرةٌ (تستهوى القلوبَ وتختلبُ الأبوابَ)، ذاتُ نظراتٍ غريبةِ لامعةٍ يَقْضِي المتفرِّسُ فيها حين يراها أنها نظراتُ مربيةٍ ألفتِ الاختلابَ والافتتانَ من عهدٍ بعيدٍ؛ فنزلتْ من قلبِ القائدِ الشيخِ منزلةً لم ينزلها منه أحدٌ من قبلها ولا من بعدها، حتى زوجتهِ الصالحةُ وولدهُ النجيبُ؛ فأصبحَ مُستَهامًا بها، مستسلمًا لها، لا يصدعُ إلا بأمرها، ولا يصدُرُ إلا عن رأيها، ولا يرى حُلُوَ العيشِ وجمالِهِ إلا بجانبها، ولا يَسْتَرَوِحُ رائحةَ السعادةِ والهناءِ إلا (إذا هبَّتْ عليها من ناحيتها) وكانت امرأةً طموحًا متطلِّعةً لا يَغْنِيها من شؤونِ حياتها إلا مظاهرُ السُودُدِ والعظمةِ، ولا يَغْلِبُ على مشاعرِها وعواطفِها إلا ذكرى تاريخِ آبائها وأجدادها، ومصارعِ قومِها في «بيزنطية» بيدِ الأتراكِ الفاتحين؛ وكانت لا تزالُ تتحدَّثُ في مجالسها العامةِ والخاصةِ بنبوءةٍ قديمةٍ تتبأ لها بها بعضُ المتنبِّئين، ومجملها أن كاهنًا عَرافًا دخلَ منزلَ أبيها وهي طفلةٌ لعبتْ لا تزالُ تحومُ حَوْلَ مَهْدِها، فنظر إليها طويلًا ثم قالَ لأمِّها: إن ابنتك هذه ستكونُ ملكةً عظيمةَ الشأنِ في مستقبلِ أيامِها.

وربما كان اهتمامها بهذه النبوءة واحتفالها بها وتصديقها إياها هو السبب في قبولها الزواج من (شيخ هرم مدبر) فلما يعنى بمثله مثلها، على أمل أن تحقق لها الأيام على يديه آمالها وأمانيتها.

فظلت تفرس في نفسه هذه الأمنية الجميلة المحبوبة مدة من الزمان، وتسقيها بماء حسنها وجمالها، حتى ملأت بها فضاء قلبه، وشغلته بها عن كل شاغل سواها.

ولم يزل هذا شأنها معه حتى مات الملك ميلوش، وجاءت الساعة التي تنتظرها، فهتفت به: ها قد حانت الفرصة التي كنا نرقبها، وها قد بدأت تتحقق نبوءة ذلك العراف الخبير التي تنبأ لي بها، وما هو بالكاذب ولا المتخرف، ثم زجت به في الطريق مزاحمة الأسقف أتين على الملك، فانقاد لها ومشى في الطريق التي رسمتها له، وأخذ يدعو الناس لنفسه، ويستكثر من سواد أشياعه وأنصاره، ويدخل أعضاء الجمعية الوطنية ويدأهنهم ويتوسل إليهم أن يساعده على نيل أمنيته التي يرجوها، مدلاً بمكانته من خدمة الأمة والوطن، وأيديه في الذود عنهما، وبما بذل من صحته وشبابه في مقاتلة الأعداء ومدافعتهم تلك السنين الطوال حتى اشتعل رأسه شيباً ولمست قدماه رأس المنحدر المؤدي إلى القبر.

هذا ما كان يشغل القائد وزوجته في ذلك التاريخ، أما ابنة قسطنطين فكان بمعزل عن هذا كله؛ فإن وفاة أمه التي كان يحبها حباً شديداً تركت في نفسه أثراً من الحزن لا يبلى، وملأت فضاء حياته همًا ونكدًا، وكان يجد بعض العزاء عن ذلك الهم الذي نزل به في حنان أبيه عليه وعنايته به، حتى تزوج من تلك المرأة اليونانية وأسلم إليها نفسه وقلبه، ففقد بفقد عطف أبيه عليه وحنان أمه كل أمل له في الحياة، وأصبح يشعر في نفسه بذلة اليتيم التي يشعر بها أولئك المساكين المنقطعون الذين لا يجدون بين أيديهم قلوباً راحمة ولا أفتدة عاطفة!

فكان يُخاطرُ بنفسه في المعارك التي يحضرها مَخاطرة اليائسِ المُستَقْتَلِ ، راجياً أن يريحه الموتُ من هُموم نفسه وآلامها ، فَرَجَ بنفسه ذاتَ يومٍ في معركةٍ كبرى استَبَسَل فيه استبسالاً عظيماً ، واستَقْتَل معه جُنده يطلبون الموتَ حيثُ يطلبُه ، فلم يبلغْ أمنيته التي يَتمناها ، ولكنه انتصرَ في تلك المعركة انتصاراً باهراً ، وأنقذَ من يدِ التركِ شَعْبٌ<sup>(1)</sup> «تراجان» وكان الملجأ العظيم لهم ، والمركز الأكبر لحركاتهم وأعمالهم .

وإنه (ليتأثرُ الجيشُ المنهزم ويشتدُّ في أعقابهِ)<sup>(2)</sup> ، إذ لمح على البُعدِ فارساً تركياً قابضاً بيده على شَعر فتاةٍ مسكينة ، يُريدُ اقتسارها وإكراهها على الرُكوبِ معه وهي تمتنعُ وتتأبى<sup>(3)</sup> وتُحاولُ الإفلاتَ من يده ، فيضربها بسوطه ضرباً مؤلماً وجيعاً ، فأزعجه هذا المنظرُ وآلمهُ ، فركضَ جَوادَهُ حتى أدركَ ذلك الفارسِ فضربَه على هامته بسيفه ضربةً قضتْ عليه ، فركعت الفتاةُ بين يديه ضارعةً تسألهُ أن يُنقذَها من شقائِها ويقودَها معه إلى حيثِ يشاء ، فَرَتى لحالتها وأحزنَه منظرها دونَ أن يعلمَ من أمرها شيئاً ، فأرَدَفَها خَلْفَهُ<sup>(4)</sup> وركضَ بها حتى بلغَ موضعَ الخيامِ ، فتركها بين الأسرى وعاد من تلك الموقعة ظافراً منصوراً ، يَهِنُهُ الشَعْبُ ويهتفُ له في كلِّ مكانٍ يمرُّ به ، حتى وصلَ إلى القلعةِ الكبرى ، فدخل على أبيه وألقى بين يديه الأعلامَ التي غنمها في المعركة ، فأمرَ برانكومير بقتل الأسرى ، وكان ذلك شأنه فيهم كلما قَدَّموا إليه ، حتى جاء دَوْرُ الفتاة ، فَجَثَّتْ بين يديه ومدتْ إليه يدها مُستغيثةً تطلبُ العفوَ وتقولُ له : إنها فتاةٌ نوريةٌ<sup>(5)</sup> مسكينةٌ لا شأن لها في الحرب ولا علاقةٌ لها بأهله ، وإن أمها باعَها منذ عامين إلى جُنديٍّ تركيٍّ أساءَ عشرتها وعذبها عذاباً أليماً حتى قبِضَ اللهُ لها هذا الفتى الكريمَ فأستنقذَها من يده . وأشارتُ إلى قُسطنطين .

(1) الشعب (بكسر الشين) : الطريق في الجبل ، وما انفرج بين الجبلين .

(2) يتأثر : يتبع الأثر . والأعقاب : جمع عقب ، وهو مؤخر القدم والمعنى أنه يتعقب الفارين والمنهزمين .

(3) تتأبى : تشتد في الإباء .

(4) أردفها : أركبها وراءه ، على ردف فرسه .

(5) النور : جنس من الناس كثير التنقل يعيش عيش البدو ويمتحن المهن الدنيا . ويعيش كثير منه في وسط أوربا . ومنه الطائفة التي تسمى في مصر «العجر» .

فركع قسطنطين بجانبها وسأل أباه العفو عنها وقال له: إنني قد أنقذت حياتها بالأمس فأنتقد أنت حياتها اليوم واجعلها حصتي الوحيدة من الغنيمة، وأعدك أنني لا أطلب غنيمة سواها. فأحفظ ذلك قلب الأميرة بازيليد زوج أبيه<sup>(1)</sup>، وكانت حاضرة تسمع حديثه، فنظرت إليه نظرة الأزدياء والاحتقار. وكان هذا شأنها معه كلما التقت به. وأنشأت تنعى عليه اهتمامه بشأن فتاة نورية راقصة طريفة غابات وفلوات، وربيبه حانات ومعسكرات، وقالت له: لقد كان جديراً بك وأنت ذلك الجندي الشريف سليل ذلك القائد العظيم والأمير الجليل أن تلقى بمثلها إلى حارس من حراس بابك أو جندي من جنودك (يتلها بها كما يتلها الكلب بالعظمة المطروحة تحت أرجله)، بدلاً من أن تصل حياتك الشريفة الطاهرة بحياتها الدنيئة الساقطة!

فثارت ثورة الغضب في نفسه (وأضغنه<sup>(2)</sup>) عليها هذا الرياء الكاذب والشرف المتكلف)، وكان يعلم من شؤون نفسها وخبايا قلبها ما لا تظن أنه يعرف شيئاً منه، فنظر إليها نظرة شرراء ملتبهة، وقال لها وهو يعلم أن ما سيقوله سيغضبها ويؤلمها ويملاً صدرها غصّة وحنقا: إن الله لم يخلق الضعفاء والمساكين ليكونوا تراباً لنا تدوسه أقدامنا وتطؤه نعالنا كلما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، ولم يمتحننا القوة والعزة لتتخذ منهما أسواط عذاب نمزق بها أجسامهم، ونستزرف بها دماءهم، وكل ذنوبهم عندنا أنهم أدلاء مستضعفون لا يملكون من القوة والعزة مثل ما نملك ولا يذودون عن أنفسهم بمثل ما ندود.

وأحسب أنهم لو كانوا أقوياء أو أعزاء مثلنا، أو أعز وأقوى منا، لخفناهم وأتقينا جانبهم ونظرنا إليهم بعين غير العين التي ننظر بها إليهم اليوم، لأن القوى الذي يتنمر<sup>(3)</sup> على الضعفاء لا بد أن يكون جباناً ذليلاً أمام الأقوياء.

إننا الآن في حرب مع عدو قاهر جبار نتقم منه جورته<sup>(4)</sup> وظلمه واستضعافه

(1) أحفظ قلبها، ملاء حفيظة وحقداً.

(2) الضغن: الحقد.

(3) يتنمر: يصطنع طبع النمر!

(4) نتقم: نكره، والجور: الظلم.

إيانا واستطالته علينا بقوّته وكثرتِه فجديرُّ بنا ألا نفعلَ ما نَنقُمُه منه ونأخذُه به؛ عسى أن يرحمنا الله وينظرَ إلينا بعينِ عدلِه وإحسانِه، وينتصفَ لِضعفِنا من قوّته، وقلّتنا من كَثرتِه .

إنّا لا نحملُ هذه السيوفَ على عواقبِنا (1) لنقتلَ بها النساء والأطفالَ والضعفاءَ والعزّلَ الذين لا سلاحَ لهم ولا قوّةَ في أيديهم، بل لنُقارعَ بها الأبطالَ والأكفءَ في ميادينِ الحُرُوبِ ومواقفِ النزالِ.

إني لا أعرفُ شرفًا غيرَ شرفِ النفسِ، ولا نسبًا غيرَ نسبِ الفضيلة؛ وإن هذه البائسةُ المسكينةُ التي تحتقرونها وتزدرّونها لم تصنعَ ذنبها بيديها، ولا سعتَ إليه بقدمها، بل هكذا قُدِّرَ لها أن تنبتَ في هذا المنبتِ القدرِ الوبيءِ، فويّبتْ وقذرتْ؛ وليس في استطاعتها أن تعودَ إلى العدمِ مرّةً أخرى لتخلقَ نفسها خلقًا جديدًا في جوٍّ غيرِ هذا الجوِّ وتربةٍ غيرِ هذه التربةِ، فما هو ذنبها وما هي جريمتها، وأي حيلة لها في هذا المصيرِ الذي ساقها القدرُ إليه؟

إنما الإثمُ على الذين يقتربون الذنوبَ وهم يعلمون مكانها من الرذيلةِ ومكانَ أنفسهم من اقترافها، ويحوّلون زمامَ حياتهم بأيديهم من طريقِ الخيرِ إلى طريقِ الشرِّ، إيثارًا لها وافتنانًا بها؛ أولئك هم الآثمون المذنبون الذين يجدرُ بنا أن نقسو عليهم ونشتدَّ في مؤاخذتهم ، أما الضعفاءُ والمساكينُ الذين لا حولَ لهم في شأنِ أنفسهم ولا حيلة، فهم برحمتنا وعطفنا أحقُّ منهم بعثنا ولومنا، فإن وجدنا السبيلَ إلى معاونتهم ومساعدتهم واستنقاذهم من وهدةِ الشقاء التي هووا فيها فذاك، أو لا فلندعهم وشأنهم تذهبُ بهم المقاديرُ حيث شاءت من مذهبها، ولا نردِّهم بكبرياتنا واستطالتنا بؤسًا على بؤسهم، وشقاءً على شقائهم.

إننا ما أصبنا بما أصبنا به من هذه النكبةِ الشعواءِ والداهيةِ الدهيَاءِ التي نزلت بنا منذ عشرة أعوام ما تفارقنا ولا تهدأُ عنّا، إلا من ناحيةِ كبرياتنا وحيلاتنا واعتدادنا بأنفسنا في جميعِ شؤوننا وأعمالنا، واحتقارِ غنينا لفقيرنا،

(1) العاتق ، الكتف.

وَقُوَّتِنَا لضعيفنا، وَسَيِّدِنَا لَمَسُودِنَا، فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْنَا ذَلِكَ الْعَدُوَّ الْقَاهِرَ الَّذِي لَا يِعْتَمِدُ فِي جَمِيعِ شَأُونِهِ وَمَوَاقِعِهِ إِلَّا عَلَى قُوَّتِهِ وَأَيْدِهِ (1)، لِأَنَّا لَمْ نَعْتَمِدْ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ حَيَاتِنَا فِي جَمِيعِ صَلَاتِنَا وَعِلَائِقِنَا إِلَّا عَلَى قُوَّتِنَا وَأَيْدِنَا، وَالْجِزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

فَاصْفَرَ وَجْهَ بَازِيلِيدَ وَارْبَدَّتْ شَفَتَاهَا، وَكَأَنَّمَا خَبِلَ إِلَيْهَا أَنَّهُ يَلْمُزُهَا وَيُرِيبُهَا (2) وَيُشِيرُ فِي حَدِيثِهِ إِلَى مَاضِيهَا الْقَدِيمِ وَحَوَادِثِ صِبَاهَا السَّالِفَةِ، فَصَمَّتْ وَلَمْ تَقُلْ شَيْئًا، إِلَّا أَنَّهُا انْتَحَتْ نَاحِيَةً وَأَخَذَتْ تَبْكِي وَتَتَخَبَّ. وَالدُّمُوعُ هِيَ السَّلَاحُ الْوَحِيدُ الَّذِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ الْمَرْأَةُ فِي جَمِيعِ شَأُونِهَا وَعِلَائِقِهَا. فَعَظُمَ الْأَمْرُ عَلَى بَرَانِكُومِيرَ وَأَكْبَرَ (3) أَنْ يُخَاطَبَ وَلَدُهُ زَوْجَتَهُ الْمَحْبُوبَةَ هَذَا الْخَطَابَ الْجَافِي الْغَلِيظَ؛ فَانْحَى عَلَيْهِ بِاللَّائِمَةِ الشَّدِيدَةِ وَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ لَمْ تُسَيِّ إِلَى نَفْسِكَ فِي تَتْرُكٍ إِلَى حِمَايَةِ هَذِهِ النُّورِيَّةِ السَّاقِطَةِ وَاهْتِمَامِكَ بِشَأْنِهَا، بِقَدْرِ مَا أُسَاتَ إِلَى أَيْبِكَ فِي مَجَابَهَةِ زَوْجَتِهِ وَمُعَايِظَتِهَا وَسُوءِ الرَّدِّ عَلَيْهَا بِهَذِهِ اللَّهْجَةِ الشَّدِيدَةِ الْقَاسِيَةِ، وَلَوْلَا هَذِهِ الرِّيَاةُ الْحُمُرُ الَّتِي أَلْقَيْتَهَا الْيَوْمَ تَحْتَ قَدَمِي بِأَهْلَتِهَا الْبَيْضَاءِ لَمَا اغْتَمَرْتُ لَكَ هَذِهِ الْجَرِيمَةَ الَّتِي اجْتَرَمْتَهَا؛ فَاذْهَبْ لَشَأْنِكَ وَلَا تَعُدَّ إِلَيَّ مِثْلَهَا.

وَكَذَلِكَ تَمَّ لِقُسْطَنْطِينَ مَا كَانَ يَرِيدُهُ مِنْ إِنْقَاذِ تِلْكَ الْفِتَاةِ الْمَسْكِينَةِ مِنْ يَدِ الْمَوْتِ بَعْدَ مَا أُنْقَذَهَا مِنْ يَدِ الشَّقَاءِ، فَذَهَبَ بِهَا إِلَى الْجَنَاحِ الَّذِي يَسْكُنُهُ مِنَ الْقَلْعَةِ، وَجَلَسَ إِلَيْهَا يَحَادِثُهَا فِي شَأْنِهَا وَشَأْنِ مَاضِيهَا، وَيَسْأَلُهَا عَنْ دِينِهَا وَمَذْهَبِهَا وَوَطَنِهَا وَقَوْمِهَا، فَلَمْ يَرَبِّ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَّا فِتَاةً سَادِجَةً جَاهِلَةً لَا تَعْرِفُ لَهَا وَطَنًا وَلَا بَيْتَةً وَلَا تَدِينُ بَدِينٍ مِنَ الْأَدْيَانِ وَلَا مَذْهَبٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ، وَلَا تَفْهَمُ مِنْ شَأُونِ حَيَاتِهَا إِلَّا أَنَّهُا فَرَدُّ مُبْهَمٌ مِنْ أَفْرَادِ هَذَا الْمَجْتَمَعِ الْمَائِجِ الْمَضْطَرَبِ، تَمْتَدُّ بِأَمْتِدَادِهِ وَتَتَحَسَّرُ بِأَنْحِسَارِهِ، لَا تَعْرِفُ الْأَمَالَ، وَلَا تُفَكِّرُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَلَا تَحْفَلُ بِالْمَاضِي، وَلَا يَتَسَعُّ عَقْلُهَا لِأَكْثَرَ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي تَعِيشُ فِيهَا، وَلَا تَتَأَلَّمُ إِلَّا كَمَا يَتَأَلَّمُ الْأَطْفَالُ، وَلَا تَفْرَحُ إِلَّا كَمَا يَفْرَحُ الْمَجَانِينُ، قَدْ صَفَّتْ نَفْسُهَا مِنْ كُلِّ

(1) الأيد : القوة.

(2) يلمزها : يشير إلى عيوبها. ويريبها : يضعها موضع الريبة.

(3) أكبر الأمر : اعتبره كبيراً.

شائبة من شوائب النفوس البشرية، فلا تحقدُ ولا تغضبُ ولا تكرهُ ولا تحسدُ ولا تلمعُ ولا تتطلعُ ولا تشغلُ ذهنها بترتيبِ الصُّورِ والأفكارِ واستنتاجِ النتائجِ من المقدماتِ ، فأصبحَ ينظرُ إليها نظراً الأبِ الرحيمِ إلى طفلهِ اللاعبِ بين يديه، وأصبحتْ تجلسُ تحت قدميه جليسةَ الكلبِ المخلصِ تحت قدمي سيده، لا تحدّثه حتى يحدثها، ولا ترفعَ نظرها إليه حتى يناديها ، وكان يقولُ في نفسه كلما نظر إليها وإلى سداجتها وطهارتها وبلاهةِ عقلها وغفلته : أهكذا قُضيَ على الإنسانِ في هذه الحياةِ ألا تخلصَ نفسه من شوائبِ الرذيلةِ والشرِّ حتى يُسلبَ عقله وإدراكه قبلَ ذلك ، وألا يُمنحَ مقداراً من الصدقِ والشرفِ حتى يُحرّمَ في مقابلهِ مقداراً من الفطنةِ والذكاءِ؛ فليت شعري هل عجزتِ الطبيعةُ عن أن تجمعَ للمرءِ بين هاتين المزيّتين، مزيةِ العقلِ الذي يعيشُ به والخلقِ الذي يتحلّى بحليّتهِ ، أو أن الله في ذلك حكمةٌ لا نعلمُها ولا ندركُ كنهها؟

وكانما كان يشعرُ في نفسه باقتداره على أن يجمعَ لتلك الفتاةِ المسكينةِ بين هاتين الفضيلتين، وأن يصوغَ من نفسها ذلك المثالَ الغريبَ الذي عجزت يدُ الطبيعة عن صياغته. فبدأ يهتمُ بشأنها اهتماماً عظيماً، ويتبسّطُ معها في الحديثِ تبسّطَ النظيرِ مع نظيره. ذاهباً معها في كلِّ وادٍ من أوديتها، معنياً كلَّ العنايةِ بتثقيفها وتعليمها وإنارةِ ما أظلم من بصيرتها، ولكنّ بأسلوبٍ غيرِ الأسلوبِ الذي كان يعلمُهُ به معلّمه في المدرسة، فأرشدّها إلى وجودِ الله لا من طريقِ البراهينِ الجدليّةِ والقضايا الكلاميّة، بل من طريقِ الآثارِ والمصنوعاتِ الناطقةِ بجمالها ولطفِ تكوينها عن قدرةِ صانعها وإبداعِ خالقها، وأرشدّها إلى الفضيلةِ من طريقِ الفضيلةِ نفسها لا من طريقِ الترغيبِ في الثوابِ والتخويفِ من العقابِ؛ ليكونَ أدبها أدبَ نفسٍ لا أدبَ درسٍ، ولتمتزجَ الفضيلةُ بنفسها امتزاجاً لا تزعزعه عواطفُ اليأسِ ولا عواملُ الرجاءِ؛ فكانت تَعْجَبُ لحديثه ومراميه عجباً شديداً، وتجدُ فيه من اللذةِ والغبطةِ ما لا تذكرُ أنها شعرتُ بمثله في حياتها في حديثِ أي متحدّثٍ يتحدّثُ إليها، وتَعْجَبُ أكثرَ من كلِّ شيءٍ لتنزّلِ

مثل هذا الأمير الجليل والسيد الشريف إلى مجالستها ومُتأففتها<sup>(1)</sup> والنزول على حُكمها فيما يُغضبها ويُرضيها، فقالت له مرةً وهي تُحاوره: إنك تُحدّثني يا مولاي كأنك لا تعرف من أنا. قال: إني أعرفك كما تعرفين نفسك، وأعرف أنك أختي في الإنسانية وهي الأمّ الرّءوم<sup>(2)</sup> التي لا يستطيع أحدٌ من بنيها أن يمّت إليها<sup>(3)</sup> بأكثر مما يمّت به إخوته، وما للأخت ملجأً تلجأ إليه في شدتها غير عطف أخيها وحنانه عليها، قالت: ولكنك تعلم أنني فتاةٌ مذنبه ساقطة. قال: كلُّ الناس مذنبون آثمون، وإنما تختلف صورُ الذنوب وأشكالها وأساليبُ اقترافها. قالت: لم أر في حياتي مُدّ نَشأت حتى اليوم عفيفاً قطُّ ابتسم في وجهي! قال: ذلك لأنَّ الناس مُراءون مُخادعون يزعمون لأنفسهم من الفضائل والمزايا ما تنكره نفوسهم عليهم، فهم يحتقرون المذنب ويزدرونه، لأنهم أطهارٌ أبرياءُ كما يزعمون، بل ليُوهموا الناس أنهم غيرُ مذنبين، ولو أنهم تكاشفوا وتصارحوا وصدق كلُّ منهم صاحبه الحديث عن نفسه لتتاركوا<sup>(4)</sup> وتهادنوا، ولما أخذ أحد منهم أحداً بذنب ولا جريرةً!

وكذلك أصبحت «ميلترا» العزاء الوحيد «لقسطنطين» عن همومه وآلامه، فقد وجد بين جنبها تلك النفس الطاهرة البريئة التي طالما نشدها قبل اليوم فأضللها<sup>(5)</sup>، وتطلبها فأعياه طلابها؛ ووجد في صدرها ذلك القلب المُحبِّ المخلص الذي بكاه وندبه نذباً شديداً يوم ماتت أمه، ويوم تولى عنه حنانُ أبيه؛ وكان يتحدث معها في كل شيء من شؤون الحياة دقيقتها وجليتها، ويُفضي إليها بكل خبيئة من خبايا نفسه، إلا ذلك الهمم العظيم الذي كان يُعالجه في أطواء نفسه، وأعماقها، ويكابدُ منه ما يُقلِّق مضجعه ويصل ليله بنهاره، وهو استحالةٌ حال أبيه<sup>(6)</sup>، وانتقاض قلبه عليه، وانقياده ذلك الانقياد الأعمى إلى تلك الفتاة اليونانية الدخيلة التي لا يعنىها من شأنه سوى أن تتخذ من عاتقه

(1) التفتة، (بكر الفاء)، الركبة؛ وثافته؛ جالسه ركبة لركبة، أي مواجهة.

(2) الرءوم؛ العطوف.

(3) يمّت؛ يتوسل وينتسب.

(4) لتترك كل منهم صاحبه.

(5) ليم يهتد إليها.

(6) استحال؛ تغير.

سَلْمًا تَصْعَدُ عَلَيْهِ إِلَى سَمَاءِ الْمَجْدِ، ثُمَّ لَا تَبَالِي بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَدْفَعَهُ بِقَدَمَيْهَا بَعْدَ بُلُوغِ غَايَتِهَا فَيَسْقُطُ فِي الْهَوَّةِ الَّتِي قُدِّرَ لَهُ أَنْ يَهْوَى فِيهَا؛ إِلَّا أَنْ «مِيلْتِزًا» الذِّكْيَةَ بِفِطْرَتِهَا، الْمُتَفَانِيَةَ فِي حُبِّهَا وَإِخْلَاصِهَا، لَمْ يَكُنْ يَفُوتُهَا أَنْ تَرَى بَعِينَ فِطْنَتِهَا وَذِكَائِهَا فِي تِلْكَ الزَّوَايَةِ الْمَظْلَمَةِ مِنْ زَوَايَا قَلْبِهِ، ذَلِكَ الْهَمُّ الْخَفِيُّ الْمَكْتَنُ (1)، وَكَانَ يُسَاعِدُهَا عَلَى فَهْمِهِ وَاسْتِكْنَاهِهِ (2) تِلْكَ الْأَحَادِيثُ الَّتِي كَانَتْ تَسْمَعُهَا تَدَوُّرُ مَنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ بَيْنَ الْقَائِدِ وَزَوْجَتِهِ عِنْدَمَا كَانَا يَمْرَانِ بِهَا أَوْ يَقِفَانِ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهَا وَهِيَ جَالِسَةٌ تَحْتَ بَعْضِ الْجُدْرَانِ أَوْ فِي ظِلَالِ بَعْضِ الْأَشْجَارِ لَا يَحْفَلَانِ بِهَا وَلَا يُلْقِيَانِ لَهَا بِالْأَلْفِ؛ فَقَدْ سَمِعْتَهُ مَرَّةً يَقُولُ لَهَا: إِنِّي أَحْبَبْتُكَ يَا بَازِيلِيدُ حُبَّ الْمَرْءِ نَفْسَهُ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ. وَلَقَدْ عَشْتُ حَيَاتِي كُلَّهَا قَانِعًا مِنَ الْعَيْشِ بِتِلْكَ اللَّذَّةِ الْوَحْشِيَّةِ الدَّمْوِيَّةِ، لَذَّةِ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَسَفْكَ الدَّمَاءِ وَتَقْطِيعِ الْأَوْصَالِ، حَتَّى رَأَيْتُكَ تَتَطَلَّعِينَ إِلَى تَاجِ الْمُلْكِ وَتَشْتَهِينَ أَنْ تَضَعِيهِ فَوْقَ رَأْسِكَ، فَأَحْبَبْتَهُ مِنْ أَجْلِكَ، وَأَصْبَحْتُ لَا أَقْتَرِحُ عَلَى الدَّهْرِ أَمْرًا سِوَى أَنْ أَرَى تِلْكَ الْجَبْهَةَ اللَّامِعَةَ الْمَضِيئَةَ يَتَلَأَلُ فَوْقَهَا ذَلِكَ التَّاجُ الْمَرْصُوعُ الْبَدِيعُ؛ فَلَا تَبْأَسِي مِنْهُ وَلَا تَقْنَطِي، وَاعْلَمِي أَنِّي سَأَتِيكَ بِهِ وَإِنْ كَانَ كَوَكْبًا نَائِيًا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، أَوْ دُرَّةً رَاسِبَةً فِي أَعْمَاقِ الْبِحَارِ، وَسَمِعْتَهَا مَرَّةً تَقُولُ لَهُ: مَا أَجْمَلَ وَجْهَكَ يَا بَرَانِكُومِيرَ، وَمَا أَبَدَعَ ضِيَاءَهُ وَالْأَلَاءَ؛ وَمَا أَنْصَعَ هَذِهِ الشُّعُورَ الْبَيْضَاءَ الَّتِي تَدُورُ بِهِ دَوْرَةَ الْهَالَةِ بِالْقَمَرِ! وَمَا أَجْمَلَ تَاجَ الْمُلْكِ يَوْمَ يَوْضَعُ عَلَى رَأْسِكَ فَتَتَّحِدُ الْأَضْوَاءُ الثَّلَاثَةَ جَمِيعُهَا وَيَمُوجُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ فَتَتَرَاءَى فِي أَجْمَلَ شَكْلِ وَأَبَدَعَ مَنْظَرٍ! إِنَّكَ سَتَكُونُ مَلِكًا يَا مَوْلَايَ، وَسَتَكُونُ أَعْظَمَ مُلُوكِ الْعَالَمِ شَأْنًا وَأَرْفَعَهُمْ مَقَامًا، وَسَتَجْتَمِعُ فَوْقَ عَرْشِكَ الرَّفِيعِ الْأَمْجَادُ الثَّلَاثَةُ: مَجْدُ النِّسَبِ، وَمَجْدُ الْحُرُوبِ، وَمَجْدُ الْمُلْكِ؛ وَقَدْ أَلْقَى الْكَاهِنُ فِي نَفْسِي كَلِمَتَهُ الَّتِي تَنَبَّأَ لِي بِهَا، وَمَا هُوَ بِالْكَاذِبِ وَلَا الْمَجْنُونِ، فَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ صَدَقِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَاعْلَمِي أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّاجِ إِلَّا خُطْوَةٌ وَاحِدَةٌ، فَاحْطُطِي بِهَيْمَةٍ وَعِزِيمَةٍ تَبْلُغُ الْغَايَةَ الَّتِي تُرِيدُ. وَسَمِعْتَهَا مَرَّةً تَقُولُ لَهُ: إِنِّي لَا أَخَافُ عَلَى أَمْلَانَا

(1) المستور.

(2) معرفة كنهه وحقيقته.

أحدًا من الناس سوى ولدك قسطنطين؛ فقد علمت أمس من بعض أصدقائه أنه يُنكر عليك كل الإنكارِ هذا المسعى الذي تسعاه اليوم، كما سمعت أنه يُتَبَطُّ الناسُ عنك ويُرحزُهم من حولك ويلقى في قلوبهم اليأس من نجاحك؛ ولقد حدّثني عنه بعضُ الناس أن ذاكرًا ذكر له مرةً ولاية العهد مُهنئًا إياه بها؛ فغضب واحدد وتغيظَ عليه تغيظًا شديدًا وقال له: إنني جُندي وُلدتُ في ساحة القتال وسأموتُ فيها. وإن كلمةً كهذه الكلمة المؤثرة يقولها أميرٌ مُطاعٌ في الجيش والشعبِ كولدك، لا بدّ أن تترك أثرًا سيئًا في نفوس الناس جميعًا وتقت في عضد أنصارك وأعوانك، وربما كانت سببًا في القضاء على أمالك وأمانيك؛ ولا أعلم لخطته هذه سببًا سوى ذلك البغض الشديد الذي لا يزال يُضمره لي في أعماق قلبه منذ دخلت بيتكم حتى اليوم، وما أذنبت إليه ذنبًا ولا أسلمتُ عنده جريرةً، فهو يؤثر أن يحرم نفسه وبيته ذلك الشرف العظيم الخالد على أن يراني جالسةً على العرش بجانبك أستظل بظل نعمتك وأشاركك في التمتع بمجدك وسلطانك. فقاطعتها الأمير وقال لها: لا تُصدّقي يا بازليدُ شيئًا مما يقولون، فقسطنطين أبر بي وأعظم حُبًا وإخلاصًا من أن يعترض سبيل رغبة يعلم أنني أرغبها وأصبو إليها، ولا أعلم أنه يبغضك أو يُضمر لك في نفسه شيئًا من الشر الذي تذكّرين، بل هو يحترمك ويُجلك إجلاله إياي، ويحبُّ لك من الخير ما يحبُّ لي ولنفسه ولا يؤثر على مرّضاتنا شيئًا.

وكذلك ظلّت ميلتزا تسمع أمثال هذه الأحاديث فتعلم منها ما يدورُ بنفسَي هذين الشخصين الطامعين. وتعلم أن هذا الذي يدورُ بنفسيهما إنما هو علة ذلك الهم الذي يعالجُه قسطنطين في أعماق قلبه ويكابده؛ ولكن لم يخطرُ ببالها مرةً أن تتقلّ إليه شيئًا مما سمعته، إعظامًا له وإجلالًا، وضنًا بنفسها وبأدبها أن تفتاحه في أمر لم يشأ هو أن يفتاحها فيه.





جاء

اليومُ المعينُ لاجتماعِ الجمعيةِ الوطنيةِ للنظرِ في انتخابِ الملكِ الجديدِ، فنظرت في المسألةَ نظرًا خالصًا مجردًا عن الميلِ والهوى ، فرأت أن العدوَّ لا يزالُ على الأبوابِ، وأنه لا يزالُ قويُّ الشكيمةِ صعبُ المراسِ، وأن الوطنَ يحتاجُ إلى الأميرِ برانكوميرِ قائدًا أكثرَ مما يحتاجُ إليه ملكًا، وأنَّ الأسقفَ «أتين» أعظمَ رجالِ المملكةِ عقلًا وأسماهم إدراكًا وأقواهم سلطانًا على نفوسِ الجيشِ والشعبِ؛ فقررتَ تقليدهُ مُلكَ البلقانِ، وأعلنتَ قرارها في جميعِ أنحاءِ المملكةِ، فقابله الشعبُ بالرضا والتسليمِ، ولم يختلفِ عليه إلا العددُ القليلُ من أشياعِ القائدِ وأنصاره.

ثم أقيمتُ حفلةُ التتويجِ بعد أيامٍ، فحضرها جميعُ وجوهِ المملكةِ وعيونها، ورجالُ السياسةِ والجيشِ، ما عدا القائدِ برانكوميرِ، فلم يأخذهُ الملكُ بهذه الهُنةِ، بل أعتبه<sup>(1)</sup> وأعطاه من نفسه الرضا، ولم يَنْعَ في أمره بذلك حتى أعلنَ عزمَهُ على السفرِ إلى الحدودِ لزيارته في قلعته، وما لبث أن سافر في جَمْعٍ من حاشيته وجُنْدِه، وكانت رسله قد تقدّمته لإنبياءِ القائدِ بمقدّمه فامتعضَ لذلك وتمرّمر<sup>(2)</sup>، وكانت تحدّثه نفسه أن يسافر إلى بعضِ الجهاتِ حتى لا يستقبله عند قدومه، لولا أن أشارت عليه بازليدُ بغيرِ هذا الرأيِ ، فأذعن لها راغمًا، ونزل بانتظاره أمام بابِ القلعةِ حتى حضر، فحياه الملكُ حين رآه تحيةَ الإجلالِ والإعظامِ، وعانقه عناقًا طويلًا، وقال له : أما الملكُ الجالسُ على عرشِ البلقانِ وصاحبُ الأمرِ والنهي فيه فهو أنت يا برانكوميرِ، أما أنا فإني خادمك الأمينُ المخلصُ القائمُ بتنفيذِ أوامرك وتجييشِ الجيوشِ لك وإمدادك بما تحتاجُ إليه

(1) الهنة : الذنب الصغير. واعتبه : لم يغضب لضعفه واقتصر الأمر بينهما على العتاب الذي يتبعه الرضا.

(2) تمرمر : اهتز هزة الغضب.

من العُدَّة والمؤونة ، واعلم أن الأمة لم تضنَّ عليك بالعرش والتاج ولا رأت أن أحداً أُجدرُ بهما منك، ولكنها ضنَّتْ بك أنت . (وأنت حصَّنها المنيع ودرعُها الواقية وبطلها الذي لا يُعني غناءه في موقعة أحد) . أن يشغلك شاغلُ الملِّك عن شأنك الذي أنت فيه والذي نصبت له نفسك طولَ حياتك، فأثرت بقاءك في هذه القلعة تحميها وتحمي المملكة بحمايتها؛ فإن لم تكن الملِّك الجالس على عرش «فيدين» فأنت الملِّك المتبوي عرش الأفتدة والقلوب، واعلم أنني ما قدمتُ إليك مقدمي هذا لأعتذر عندك من ذنب أذنبته إليك، أو لأتوجع لك من كارثة نزلت بك؛ لأنني أعلم أنك أجلُّ وأرفعُ من أن تعتبر عبء الملِّك وهمه نعمة تأسف على فقدها، بل جئت لأباركك وأمسحك وأدعو لك الله أن يمِدك بروح من عنده حتى يتم لنا على يدك النصر الذي نرجوه لأنفسنا، فيأمن البلقان أبداً الدهر أن تحفَّق على ربوعه بعد اليوم رايةً غير راية المسيح، أو يرنَّ في أجوائه صوتٌ غير صوت الله.

ثم تقدّم نحوه ووضع يده على رأسه يباركه ويصلي له، وبرانكومير يتميِّز غيظاً وحنقاً، ولكنه يتجلد ويستمسك، حتى فرغ الأسقف من شأنه ، فلم يرَ بداً من أن يستقبل حفاوته بمثله ، فمدَّ إليه يده وهنأه بالملِّك واعتذر إليه من تقصيره في حضورِ حفلة التتويج ، فقَبِلَ عذره، وقضى بقية يومه عنده هانئاً مغتبطاً لا يرى إلا أنه قد أَرْضاه ومحا أثر ذلك العتب من نفسه.

ثم عاد بموكبه راضياً مسروراً ، فشيعه القائدُ إلى ضاحية المدينة وليث واقفاً مكانه ساعة ينظرُ إلى ذلك الموكبِ الفخم العظيم، ويسمعُ موسيقاه الشجية الجميلة، حتى غاب عن بصره، فانقلب إلى قصره ثائراً مُهتاجاً يصيحُ ويَجَارُ ويهذي هذيان المحمومين، حتى بلغ عُرفته الخاصة فوقف بجانب نافذة عالية مُشرفة على الجماهير الغادية والرائحة في طرقتها ومذاهبها، وأنشأ يحدث نفسه ويقول:

تبا لك أيها الشعب الخائن الغادر، لقد جازيتني شرَّ الجزاء على عملي، وكفرت بنعمتي التي أسديتها إليك، ويدي التي اتخذتها عندك، أيام كنتُ أسهرُّ

لنتام، وأشقى لتسعد، وأقضي ليالي الطوال سجيناً في قلعتي لا أبرحها ولا أنتقل منها لأدبر لك أمر الحماية التي تحميك وتصون أرضك وديارك، وأنت لاه لاعب هانئ مغتبط، يمرح عامتك في منازلهم ومسارحهم ليلهم ونهارهم، ويُقيم خاصتك حفلات الرقص والغناء في قصورهم وأنديتهم، فكان جزائي عندك أن ضننت عليّ بالعرش الذي أنا عمادته وملاكه وحامل قوائمه وعمده، وآثرت به كاهناً مأفوناً<sup>(1)</sup> لا شأن له في حياته سوى أن يمسح رءوس الأطفال ويهيمهم حول أسرة الموتى، فبئس ماجررت على نفسك من الويل في فعلتك التي فعلت، وبئست الساعة التي رأيت فيها هذا الرأي الفائل الخطل<sup>(2)</sup>؛ لقد قلت (3) بيدك سيفك الذي كان يحميك ويصونك، وأطفأت جذوة الحماسة في صدر قائدك الذي كان يذود عنك وعن عرضك، ويحمي أرضك وديارك؛ فابتغ لك بعد اليوم قائداً يتولّى حمايتك وصيانتك، أو فاطلب إلى أسقفك التقى الصالح الذي توجّهت بيدك واخترته بنفسك لنفسك أن يستنزل لك بدعواته النصر من آفاق السماء!

وإنه ليردّد في موقفه أمثال هذه الكلمات وينفث سموماً الحقد والشر على العالم بأجمعه، إذ دخلت عليه الأميرة باسمه متطلّقة تختال في حلّها وحلاها، فأخذت بيده وقالت له: أرفق بنفسك يا برانكومير، واعلم أن نبوءة الكاهن لا تكذب ولا تخيب، وأبشرك أنك ستكون بعد شهر واحداً ملكاً على البلقان، ولا تسألني كيف يكون ذلك! فدهش لأمرها وحاول أن يسألها عن معنى كلمتها ومأتاها فلم تمكّنه من ذلك، لأنها تهافتت عليه<sup>(4)</sup> واعتنقته ووضعت على فيه قبلة شهية أطفأت بها جذوة حدته وغضبه، ثم أفلتت من يده وعادت أدراجها.



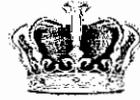
(1) المأفون، الضعيف الرأي، والأحمق.

(2) الفائل: الذي يخطئ في فراسته، والرأي الخطل: الفاسد المضطرب.

(3) قلت السيف، ظلمت حذو.

(4) التهافت: السقوط.

## المؤامرة



«بازيليد» في سَريرها وجلست خادمتها «صوفيا» تحت  
**اضطجعت** قدميها تُروِّح لها بمرِّوحَتها وتُحدِّثها حديثَ تلك الآمال  
 الحسان التي لا تزال تتراءى لها في يَقطتها وتَحلمُ بها في  
 منامها، وإنهم كذلك إذ قُرع البابُ قرعاً خفيفاً، فعرفت «صوفيا» من القارعِ  
 وفتحت له، فإذا «بانكو» الجاسوسُ التركيُّ متكرِّراً في زِيِّ الموسيقىارِ المسكينِ،  
 فدخل وحيّاً الأُميرةَ تحيةَ الإجلال والإعظام، ثم أخذ مَقعده الذي كان يَقَعدهُ  
 من الغرفة في كلِّ ليلةٍ، وأنشأ يضرب على قيثارته قطعة رومانية جميلة من تلك  
 القطع التي كان أعدها منذ عهد طويل ليخلبَ بها لُبَّ تلك المرأةِ ويستهوِّبها حتى  
 أتمَّها، فطربت لها طرباً شديداً، ثم دعت خادمتها فأرسلتها في بعض الشؤون،  
 فلما خلا بها المكانُ ألقى الموسيقى قيثارته جانباً وخلع عنه رداءَ التنكرِ، ثم  
 مشى إلى سريرها فجلس بجانبها وقال لها: ماذا تمَّ في المسألة يا بازيليد. فقد  
 طال مَقامي في هذا البلد وأخشى أن يرتابَ بي أحد، وليس في استطاعتي أن  
 أبقى هنا أكثر من ثلاثة أيام ثم أنصرف لشأني.

فاعتدلت في جلستها وقالت له : لقد فاتحتُ الأميرَ ليلةَ أمس في المسألة  
 وعرضت عليه مُقترَحَك الذي اقترحتَه، فأصغى إلى حديثي في مبدأ الأمر، ثم  
 لم يلبث أن اكفهرَ وجهه وكتأب وأبي أن يقبل مني كلمة واحدة في هذا الشأن،  
 وظل يُقاطعني ويعارضني معارضة شديدة، فلم أشأ أن ألحَّ عليه مخافة أن يرتاب  
 بي وبمقصدي، وسأستأنف معه الحديثَ الليلةَ بعد رجوعه من المعسكر، وأرجو  
 أن ينتهيَ بإذعانه وتسليمه، ولا يفتك يا سيدي أن من أصعب الأمور على رجل  
 شريف عظيم مثل برانكومير، أن يتحوَّل في ساعة واحدة عن أخلاقه وطبيعته.  
 وأن ينقلبَ فجأة من رجل وطني مخلص يَبْدُل دَمَه وحياته في سبيل الدفاع عن

وطنه والدَّودِ عنه، إلي خائن سافل يبيع ذلك الوطنَ العزيز عليه من أعدائه بَعْرَضِ تافهٍ من أعراضِ الحياة، فلا بد من مُهادِنَتِهِ ومُؤاتاتِهِ (1) وأخذه بالرَّوِيَّةِ والتَّوَدَّةِ.

قال : ليس في الأمر خيانةٌ ولا دناءة، ولا يَبِيعُ وطن ولا أُمَّة، فإننا لا نُريد أن ندخلَ بلادكم مستعبدين أو مُسترقين، بل أصدقاءً مخلصين، وما خطر ببالنا قطُّ حينما فكرنا في افتتاح بلادكم والنزول بها أن نُصادرَكم في حريتكم الدينية والاجتماعية، أو نسلَبَ أموالكم وننتهك أعراضكم، أو نغلِقَ أبوابَ كُنائسكم ومعابدكم، أو نُخرِسَ أصوات نواقيسكم وأجراسكم، إلا لنكونَ أعوانكم على ترقية شؤونكم الاجتماعية والاقتصادية، والسير بكم في طريق المدنية الأديبة والسياسية، حتى تبلغوا الذروة العليا منهما، ولنَحْمِيَكُم فوق ذلك من أعدائكم المَجْرِبِينَ الذين يطمعون في امتلاك بلادكم واغتيالها، وندفعَ عنكم شرورهم ومطامعهم، فنحن أصدقاؤكم المخلصون الأوفياء من حيثُ تظنون أننا أعداؤكم وخصومكم.

فابتسمت بازليد ابتسامة الهُرَّةِ والسخرية، ونظرت إليه نظرة عتبٍ وتأنيب، وقالت له : إن برانكومير يا صديقي ليس موجودًا معنا لنَخْدَعَهُ بأمثال هذه الأساليب الكاذبة، أما أنا فإنني لا أنخدع بها ولا أغترّ، لأنني أعلم كما تعلم أنت وكما يعلم الساسةُ الكاذبون جميعاً أن الفاتحين من عهدِ آدمٍ إلى اليوم وإلى أن يَبْدَلَ الأَرْضُ غيرَ الأَرْضِ والسَّمَوَاتِ، لا يفتحون البلادَ للبلاد بل لأنفسهم، ولا يمتلكونها لرفع شأنها وإصلاح حالها والأخذ بيدها في طريق الرقيِّ والكمال كما تقول، بل لامتصاصِ دماها وأكلِ لحمها وعرقِ عَظْمِها (2) وقتل جميع مواردِ الحياة فيها، والأمةُ إن لم تتولَّ إصلاحَ شأنها بنفسها لا تُصلِحُها أمةٌ أخرى، مهما حَسُنَتْ نيتُها ونَبِلَ مقصدها؛ والصالحُ إن لم يَنْبُتْ في تربةِ الأمةِ نفسها، ويزهَرُ في جَوْها ويأتلف مع مزاج أفرادها وطبيعتهم لا يَنْفَعُها ولا يُجِدِّي عليها،

(1) الصبر عليه.

(2) عرق العظم : أكل ما عليه من اللحم.

ويكون مثله مثل الزهرة التي تنقل من مغرسها إلى مغرس آخر، فهي تزهر فيه أياماً قلائل ثم لا تلبث أن تذبل وتذوي.

فإن وجد بين أولئك الطامعين من يذهب في سياسته الاستعمارية مذهب الإصلاح والتشييد، فكما يُسمَّن صاحب الشاة شاته ليدبحها ويأكلها، وكما يتعهد صاحب المزرعة مزرعته بالرّي والتسميد ليستكثر غلتها وثمراتها.

أما الحرّية الدينية التي تُريدون أن تمّنوا بها علينا فما أهونها عليكم ما دامت لا تعطل لكم غرضاً، ولا تقف لكم في سبيل مطمع، وقديما كان الفاتحون يخدعون الشعوب الجاهلة بإرضائها في شؤون دينها، ليسلبوا شؤون دنيها؛ ويوجهون نظرها إلى الشؤون الروحية الخالصة، ليقطعوا عليها طريق النظر في الشؤون المادية الحيويّة، فكان مثلهم في ذلك مثل اللص الذي يدس لمن يريد سرقة مادة مخدّرة في طعامه لا تكلفه إلا ثمناً يسيراً ليستولى على الجَم الكثير من دنائره ودراهمه، على أن القوة الدينية في الأمة أثر من آثار القوة السياسية. فإذا ضعُف أمر الأمة في سياستها، ضعف أمرها مع الأيام في دينها، ولا بقاء لدين من الأديان يعيش تحت سلطان دين آخر ويستظل برايته، إلا كما يبقى الثلج تحت أشعة الشمس وحرارتها، ومن ظن غير ذلك فعلى عقله العفاء!

أما حمايتكم إيانا من أعدائنا فليس لنا على وجه الأرض عدو سواكم، فاحمونا من أنفسكم قبل أن تحمونا من غيركم، وهب أن المجريين أعداؤنا كما تقولون، فهل يطمعون في شيء أكثر مما تطمعون فيه أنتم، وهل يُحاولون منا غير هذا للفتح الذي تحاولونه اليوم؟ وهل من الرأي أن يهب الإنسان متاعه رجلاً مخافة أن يغلبه عليه رجل آخر؟ أو أن يذبح نفسه بيده فراراً من ذابح يريد أن يذبحه؟

إنكم ما جئتم هنا لتحمونا من أعدائنا، بل لتحتموا بنا من أعدائكم، لأنكم إنما أردتم بامتلاك هذه البلاد واستعمارها أن تتخذوا من حصونها وقلاعها وجبالها وأسوارها ودماء أبنائها وأرواحهم وقاية لكم تتقون بها زحف المجريين عليكم وعدوانهم على أرضكم.

هذه هي الحقيقة التي لا ريبَ فيها، فإن كنت تريد بما قلته أن تُعلّمني ما ألقتهُ لذلك الرجل الذي اتفقنا على خداعه وختله، فإنني أحفظُ كثيرًا من أمثال هذه الرقي والتعاويد، فلا حاجة بي إلى سماعها منك، فلنعمل في المسألة معاً متكاشفين متصارعين، ولتعلّم أن الذي أسعى لإعطائك إياه وتسليمك زمامه إنما هو الوطنُ بأجمعه، أرضه، وسماؤه، وبرّه وبحره، وخيراته وثمراته، وحرية أهله وسعادتهم، وأن الثمن الذي أتقاضاكهُ في سبيل ذلك ثمنٌ بخسٍ ضئيل لا يزيد عن كرسيّ من الخشب مموّه بالذهب يسميه الجهلاء عرشاً وهو في البلد المغلوب على أمره المسلوب حريته واستقلاله سجنٌ ضيق، لولا خدع الحياة وأكاديبها لما استطاع الجالسُ عليه أن يهدأ فيه ساعةً واحدة، فأنا أبيعك هذا الوطنَ الثمينَ وأخذُ منك ذلك الكرسيّ الحقيق، وأنا عالمةٌ قيمةً ما أعطي وقيمةً ما أخذ، فلا تحسب أنك تخدعني أو تداهني (1) في هذه الصفقة، وأقسم لك بشرفي وشرف «بيزنطية» لو كان هذا الوطنُ وطني وكانت تربته مدفن أبائي وأجدادي لما بعتك ذرّةً واحدة من ترابه بجميع عروش الأرض وتيجانها.

فاصفرّ الجاسوس وأربد وجهه وقال: إننا ما اجتمعنا هنا لتفسير معنى الفتوح والاستعمار، بل لأعرض على زوجك هذا العهد السلطاني بتقليده مُلك البلقان وإلباسه تاجه إن هو تمكن من إخلاء التُّخوم (2) من حراسها وسهّل لجيشنا سبيل اجتيازها، فإن قبل فذاك، أو لا عدت بعد ثلاثة أيام إلى مركز الجيش ورفعت الأمر إلى سلطاني وقائدي، وعادت الحرب إلى شأنها الأول أو أشد، ولا يعلم إلا الله متى تنتهي وماذا تكون عاقبتها.

فتناولت منه العهد وقالت له: سنلتقي بعد ليلتين أو ثلاثٍ وسأخبرك بما تم عليه الاتفاق.

فقام إلى مكانه الأول وأخذ يضرب على قيثارته بعض الأناشيد الدينية، وما هي إلا لحظة حتى عادت الوصيفة، وكان الليل قد انتصف، فاستأذن للانصراف وانصرف.

(2) التُّخوم : الحدود.

(1) تغشني.

# الأمَل



شقاءً كله، وأشقى المحبين جميعاً أولئك الذين يحبون بلا

الحب - أمل ولا رجاء!

إنهم يذرفون دموعهم وهم عالمون أنهم يسكبونها في أرض قاحلة جدياء لا تثبت لهم راحة ولا سعادة، ويسهرون لياليهم وهم يعتقدون أن ظلّماتها لا تنحسر عن فجر منير أو صبح سعيد، ويظرفون براء وسهم في خلواتهم لا ليفكروا متى تنتهي أيام شقائهم أو تبتدئ أيام سعادتهم، فحياتهم كلها شقاء لا فرق بين أمسها وغدها وحاضرها ومستقبلها، بل ليفكروا متى يرحلون عن هذه الدار ليستريحوا من آلامها وهمومها، فإن كان لابد لنا من أن نذرف قطرة من دموعنا على شقي في هذه الأرض؛ فلنذرفها على والد تكل ولده في ريعان شبابه، أحب ما كان إليه، وألصق ما كان بقلبه، من حيث لا أمل له في رجعته ولا رجاء في لقائه، أو عاشق علم في ساعة ما كان يتوقعها أن حبيبته قد تزوجت من غيره، وأنها ستسافر اليوم أو غداً إلى وطن ناء لا رجعة لها منه أبد الدهر، فوقف أمامها يودّعها وداعاً لا يقول لها فيه: إلى الغد أو إلى الملتقى؛ ولا يأخذ عليها فيه عهداً أو ميثاقاً؛ بل يصمت صمتاً تذوب فيه كبده القريحة ذوباً، حتى إذا غابت عن بصره وانقطع آخر آثارها رجع أدراجة وهو يعلم أن لا نصيب له في العيش بعد اليوم، وأن هذا آخر عهده بالحياة - أو فتاة بائسة مسكينة كتب لها شقاؤها أن يعلق قلبها بعظيم من عظماء الحياة المدلين بأنفسهم ومكانتهم، فلا تستطيع الصعود إليه في سمائه، وليس من شأن مثله أن يهبط إليها في أرضها، فهي تبكيه ولا يشعر ببكائها، وتهتف باسمه ليلاً ونهاراً ولا يسمع نداءها، ولا يزال هذا شأنها حتى يوافيها أجلها فيريحها.

كذلك كان شأن ميلترا، فإنها أحبت سيدها حب العابد إلهه المعبود، وافتتنت

به افتتانا كانت تحسبه في مبدأ أمرها عاطفة ولاء وإخلاص، فإذا هو لوعه الحب وحرقه الغرام، ولكن أتى لها وهي الفتاة النورية الساقطة المسكينة أن يمتد بها مطمعها إلى ذلك الكوكب النائي في سمائه. أو أن تمت إليه بسبب من تلك الأسباب التي يمت بها الناس بعضهم إلى بعض، فكانت وهي أقرب الناس إليه أبعد الناس عنه وأنهم من مكانه: لا تستطيع أن تتجاوز في موقفها معه منزلة الخادم من المخدوم، والسيد من المسود، والصنعية من صاحب النعمة. وكان يقلقها أشد القلق ويكاد يذيبها حياءً وخجلاً خوفها أن يطلع منه على سريرة نفسها، أو أن يعثر يوماً من الأيام بتلك اللوعة المتأججة في صدرها، فيتهمها في عقلها ويسخر بينه وبين نفسه بتصوراتها وأمالها<sup>(1)</sup>، فكانت تفر من نظراته كلما وقعت عليها حتى لا يرى في عينيها أثر الدمع ولا حمرة السهر، وتهرب من الخولة به جهدها حتى لا يرتاب في اصفرار وجهها واضطراب أوصالها وذ هول عقلها ولجلجة لسانها، أي أنها كانت محرومة كل شيء حتى تلك اللذة الضئيلة التي يتمتع بها أقل المحبين حظاً وأخيبهم في الحب سهماً، وهي الإفضاء بمكنون صدرها إلى ذلك الذي تحبه وتعبد؛ وكان كل ما يعرف قسطنطين من شأنها أنها فتاة مخلصه ونية تحبه حب العبد الشكور لسيد المنعم، وكان يجد في بلايتها وسداجتها وطهاره قلبها ونقاؤه وصدق لسانها وإخلاص قلبها ملهاة يتلهى بها عن همومه وأحزانه، ومثكاً يتكى عليه في ساعات إعيائه ونصبه، لا يزيد على ذلك شيئاً؛ فكانت إذا جن الليل وأخذت الجنوب مضاجعها جلست في فراشها تساهر الكوكب وتطالع وتزفر زفرات حرى موجعة وهي لا تعلم ماذا تشكو ولم تبكي؛ لأنها لا تعرف لها غرضاً ولا غاية، ولو استطاعت أن تفهم من شؤون نفسها ما يفهم الناس من شؤون نفوسهم لعرفت أنها إنما تبكي على أن ليس لها في الحياة كما للناس أمل ولا رجاء.

هذا هو الحب الطاهر البريء الذي لا تشوبه الأغراض والغايات، ولا تحيط به الريب والشكوك، والذي طالما نشده الناس في كل مكان فأضلوه، وذابت قلوبهم

(1) الفصيح أن يقال: سخر منه، واستهزأ به.

حسرةً عليه فلم يجدوه؛ وأيّ سعادةٍ في الدنيا أعظمُ من سعادةِ نفسٍ تجد بين يديها نفسًا طاهرةً مخلصَةً تُحِبُّهَا وتَعْبُدُّهَا ، وتمتزجُ بها امتزاجَ الماءِ بالخمرِ، والأريجِ بالزَّهرِ؟ ولقد ظفَرَ قسطنطينُ من تلك الفتاة بهذه النفسِ المخلصَةِ المتعبدةِ التي تحزنُ لحزنه، وتفرحُ لفرحه، وتغضبُ لغضبه، وترضى لرضاه، ولا تعرفُ لها وجودًا منفصلًا عن وجوده، ولا حياةً مستقلةً عن حياته، فكانت منه بمنزلةِ المرأةِ من الوجه: تَقُطِبُ إذا قَطَبَ، وتبتسمُ إذا ابتسم، وتطيرُ فرحًا وسرورًا بانتصاراته، وتدوبُّ كمدًا وحُزنًا لآلامه وأحزانه، وتحبُّ أباه حُبَّهُ إياه، وتتفرَّجُ من زوجِ أبيه نُفوره منها، وهو وإنَّ لم يكن يُفَاتِحها في شأنٍ من شؤونه الخاصَّةِ، ولا يُفَضِّي إليها بسرًّا من أسرارِ بيته وعلائقِ بعضِ أفرادِه ببعضِ، إلا أنها كانت تشعرُ<sup>(1)</sup> أن تلك المرأةَ اليونانيةَ الدخيلةَ خطرٌ عظيمٌ على الوالدِ والولدِ، بل على الأمةِ بأسرها، وكان شعورها هذا يقودُها إلى مُراقبتها ومُلاحقتها في كلِّ مكانٍ، وترصدُ حركاتها وسكناتها علها تهجُمُ منه على ذلك السرِّ الهائلِ الذي تتوهمهُ توهمًا ولا تعرفه، فتكشِفُه وتُمرِّقُ عنه الستارَ؛ حتى واتاها القدرُ يومًا من الأيامِ فَعَثَرَتْ به...



(1) انظر التعليق في هامش ص (9).

# السر



رجع

قسطنطين من بعض غزواته ، فدخل على ميلتزا فرأها مُطرقة واجمة ، فلم يُلق لها بالا وخلع رداءه ثم جلس على كُرسِيّه جُلُوسَةَ الراحة والسكون، وأنه لكذلك إذا طَرَقَ مَسْمَعَهُ صوتُ تلك القيثارة البديعة التي كان يسمُعُها من حين إلي حين تَصَدَّحُ في قصر أبيه ، فطرب لها طربًا شديدًا ، وافترَّ ثغرُه بعد عبوسه ، ثم نظر إلي ميلتزا وهي جالسة تحت قدميه ، فرأها مصفرةً مُغْبِرَّةَ الوجه ذاهلة ، كأن نكبة من النكبات العظام قد نزلت بها . فَعَجَبَ لِأمرها وقال لها : ألا تَطَرِّبين معي يا ميلتزا لهذه النغمات الشجية البديعة؟! فرفعت رأسها إليه وكأن دمعَةً لأمعةً تترقرق في عينيها ، وقالت له : لا يا مولاي! فدهش لقولها وقال : ولم؟ قالت : لأنني لا أحبها! قال ولم لا تُحِبِّينها؟ قالت : لأنني لا أحب صاحبها ، قال : وهل تعرفينه؟ أليس هو ذلك الرجل البائس المسكين الذي يختلف إلى الأميرة من حين إلي حين ليُسمِعها أناشيد قومها وأغانِيهم فتعود عليه ببعض نوالها؟ قالت : إنه ليس بسائل يا سيدي ولا مسكين ، بل هو الضابط العظيم إبراهيم بك أحد قواد الجيش التركي ، فانتفض قسطنطين مدعورًا واستوى في مكانه جالسًا وقال : ماذا تقولين؟ قالت : إنني كنت مخدوعةً به قبل اليوم ، حتى رأيتُه ليلة أمس واقفًا تحت شجرة وارفة من أشجار الحديقة يُصَلِّي صلاة المسلمين مُطَرِّقًا خاشعًا مستقبلاً قِبَلَتهم ، فارتبَّتُ في أمره ، ثم دَنَوْتُ منه وأمعنتُ النظر في وجهه من خلال بعض الأغصان ، من حيث لا يشعر بمكاني ، فعرفته وذكرتُ أنه ذلك البطل العظيم الذي كنت أراه في معسكر الجيش التركي لا يزال مُرافقًا للقائد الكبير ، يسيرُ في ركابه حيث سار ويتنقل معه في غداوته وروحاته؛ وإن غابت عنى معرفته فلن تغيب عنى معرفة تلك الشجة الهلالية الواضحة في جبينه ، وذلك الخال الأسود المرتسم تحت عينه اليسرى ، بل أعرفه من تلك النغمات الشجية التي يُغنيها الآن .

وهنا توقفت عن الكلام، واضطربت وكان كلمة حائرة، تَخْلُجُ بين شفيتها؛ فعجب قسطنطينُ لأمرها وسألها ما بالها؟ فأطرقت هنيهةً ثم رفعت رأسها فإذا دمةٌ تتحدّرُ على خدّها، واستمرت في حديثها تقول: نعم إنني أعرفه من تلك النعمات التي كان يدعوني إلى الرقص عليها في خيمته في المعسكر وهو جالس بين صحّبه وخلائه من قواد الجيش ورؤسائه، يُغنيهم ويُطريهم، فأرقص أمامهم رقص الطائر المذبوح وفؤادي يتمزق لوعةً وأسى، لا أهن ولا أفر ولا أستغفي ولا أعتذر، مخافة أن يرى سيدي الجندي ذلك مني فيعاقبني؛ فقد كان يُحاسبني على الضعف والعجز والحياء والخجل والتلوم<sup>(1)</sup> والاحتشام، مُحاسبة القاضي المجرمين على الذنوب والآثام؛ فاعذرني يا سيدي إن بكيّت لحظة بين يديك، فإنني وإن كنت وُلدت في مهد الشقاء، ونشأت في حجر البؤس والآلام، فقد كانت تلك الأيام التي قضيتها في ذلك المعسكر أو في بؤرة السقوط والعار، أشقى أيامي وأعظمها شدةً وبؤساً، لا أذكرها إلا بكيّت لذكرها وأسبلتُ ردائي على وجهي حياءً منها وخجلاً.

على أنني أحمدُ الله إليك، فقد بسطت إلي يد رحمتك وإحسانك، واستنقذتني من مخالف ذلك الشقاء أيأس ما كنتُ من الخلاص منه؛ أحسن الله إليك وهون عليك همومك وآلامك.

وكانت تتكلم وقسطنطينُ لاه عنها بقصة ذلك الجاسوس، لا يكاد يشعر بشيء مما حوله، ثم التفت إليها وقال لها: إذن هو جاسوسٌ مُتكرّر! قالت: ذلك ما أعتقده يا مولاي ولا أرتابُ فيه. فظل يدور في الغرفة دَوْرَةَ الهائم المُخْتَبِل<sup>(2)</sup> لا يهدأ ولا يترنّث، وظل على ذلك ساعة ثم انتقض بغتة على ردائه فاخطفه وخرج من الغرفة مسرعاً، فأدركته ميلترا وتعلقت بأطراف ثوبه وقالت له: أين تريد يا مولاي؟ قال: أريد أن أقبض على ذلك الجاسوس المجرم وأرفع أمره إلي الأمير ليبري رأيهِ فيه. قالت: إن القيثارة قد انقطع صوتها، ولا بد أن يكون قد ذهب لسبيله، فدعهُ وشأنه. قال: لا بد لي من أن أكشف أمره على كل حال حتى لا يعود إلى هذا المكان مرةً أخرى. قالت: أضرعُ إليك يا سيدي أن تملك نفسك وأن تهدأ لحظة واحدة حتى أتمم لك بقيّة حديثي. فجمد في مكانه وقال لها: ماذا عندك

(1) التلوم: البطء

(2) المختبل: الذي ذهب عقله.

بعد ذلك؟ قالت: إن كنت تريد أن ترفع أمر الرجل إلي أبيك ليعرف حقيقته فاعلم أنه يعرفه حق المعرفة، بل هو أعلمُ به مني ومنك! فثار نائره وصرخ في وجهها قائلاً: ماذا تقولين أيتها الفتاة؟ وجرّد سيفه من غمده وأهوى به عليها ليقتلها، فاستخذت له (1) ومدّت إليه عنقها وقالت: اضرب يا مولاي، فدّمي حلالٌ لك، وإن شئت فاستمع مني كلمةً واحدة قبل أن تفعل، فإن شرفك وشرف بيتك رهنٌ بما أقول! فجمد السيف في يده وظل شاخصاً إليها ينتظر كلمتها، فقالت: نعم، قد تمّ الاتفاق بين أبيك وزوجته وذلك الجاسوس التركي على أن يُخلّي أبوك تخومَ المملكة من حراسها هذه الليلة، لتمكّن الجيوش التركية من اجتيازها؛ فإن فعل أصبح في الغد سيد البلقان ومليكها. قال: ومن أين لك علمٌ ذلك؟ قالت: قد سمعت الحديث الذي دار بينهم في هذا الشأن، ورأيت ورقة منشورة بين أيديهم يقرؤونها ويتداولونها، وما أحسبها إلا وثيقة العهد الذي تعاهدوا عليه، فإن كنت لا تزال في ريب من ذلك فدوّنك الغرفة المجاورة لغرفة الأميرة فادخلها برفق وهُدوء، ووضّع أدنك على خصاص (2) الباب المغلق بينهما، كما صنعتُ أنا منذ ساعة، تسمع ما يتحدثون به، ولك حكمك بعد ذلك.

فشعر قسطنطين أن الأرض الفضاء تدور به؛ وأن الشمس قد لبست قناعها الأسود فما يرى شعاعاً من أشعتها، وأن فرائصه ترتعد وتصطك فما تكاد تحمله؛ فترجع إلي جدار قائم وراءه فأسند ظهره إليه حتى هدأ قليلاً، ثم مشى يتحامل على نفسه حتى دخل الغرفة التي وصفتها ميلتزا، ومشى إلى الباب الموصل بين الغرفتين ووقف بجانبه يتسمع فلم يسمع شيئاً، حتى ظنّ الغرفة خالية، ثم سمع صوت أبيه فانتبه وتجمّع للإصغاء، فإذا هو يقول لزوجته بصوت خافت متهدج (3): هل سافر الرجل؟ قالت: نعم يا سيدي! وما أحسب إلا أنه تجاوز أطراف التخوم الساعة، فإن جواده أقره الجياد (4) وأسرعها. فصمت ولم يقل شيئاً، فدنت منه وقالت له بنغمة حلوة ساحرة: ما هذا الاصفراء الذي يكسو وجهك يا ميشيل؟ وما هذه الكأبة السوداء التي تتدجى في عينيك؟ (5)

(1) استخذي، خضع.

(2) ثقب الباب.

(3) صوت متهدج، متقطع مرتعش.

(4) أكرم الجياد.

(5) الدجا، الظلام، ويتدجي، يظلم.

فهل أنت نادٍ على ما كان؟ قال: لا ، ولكنني أخشى الفشل. (1) قالت: لا أعرف للفشل باباً يُمكنه أن يدخل عليك منه، فأنت قائد الجيش وصاحب الأمر والنهي فيه، فإن كان كل ما يعينك من الأمر ألا تظهر يدك في هذا العمل فقم الساعة والبس ثياب أحد الحراس واذهب إلى مكان الحارس الأول القائم على حراسة الراية الأولى، وأرقبه حتى تأتي ساعة انصرافه واستبداله، فأظهر له كأنك الحارس الذي يخلفه في مكانه واهتف له بكلمة السر التي بثتها الليلة بين جنودك. وحراس المدولة كثيرون لا يكاد يعرف بعضهم بعضاً. فإذا انصرف لشأنه أخذت مكانه من حيث لا يعلم من أمرك شيئاً ، حتى إذا رأيت الجيش التركي مقبلاً في منتصف الليل، وعلمت أنه قد أشرف على التخوم ومك رأس الطريق إلي «فيدين» عدت أدراجك إلى القصر متنكراً كما ذهبت، لم يشعر بك أحد في ذهابك أو إيابك، وكأننا قد فوجئنا بهذه النازلة مفاجأة لا نملك معها للأمر دفعا ولا رداً.

فطارت نفس قسطنطين شعاعاً (2) عند سماع هذه الكلمات ، وكاد يصرخ صرخة عظمي يرتج بها القصر وأرجاؤه، لولا أنه طمِع في أن يسمع من أبيه كلمة شرف وإباء تهدم صرح تلك الخيانة الذي تبنيه يد زوجته، فأرهِف أذنيه ليسمع جوابه، فسمعه يقول بنغمة الفارح المغتبط ، بعد كلام كثير لم يفهمه : نعم، هذا هو الرأي السديد، ولقد أمنت الآن كل شيء، فأتيت بلباس الحارس، فقد عزمت ولا مرد لعزمي، فتهافتت على عنقه وقبلته قبله طويلاً رن صوتها في أرجاء الغرفة، ثم ذهبت لشأنها.

فما سمع قسطنطين هذه الكلمة حتى أظلمت عيناه، واكفهر وجهه، وتداركت ضربات قلبه، وحاول أن يصيح فخانه صوته ، فسقط مغشياً عليه، ولكن بين ذراعَي ميلتزا، لأنها كانت واقفة وراءه ترصدُه من حيث لا يشعر بمكانها، حتى إذا هوى تلقته بين ذراعَيْها وقادته إلى غرفتها.

(1) يريد من معنى الفشل هنا ، الإخفاق والخيبة .

(2) طارت نفسه شعاعاً ، أي تفرقت قطعاً، كأنما تبعثرت خواطره طائفة فلا يكاد يجتمع رأيه على أمر



## الجريمة

جَنَم

الليلُ في مَجْتَمِه ونشر أجنحتَه السوداء على الكون بأجمعه،  
فَهَجَعَتْ تحت ظلالها الأحياءُ جميعاً من بشرٍ وحيوان. ولم يبقَ  
سأهراً وسَطَ هذا السُّكونِ المخيمِ إلا عينا القائد برانكومير  
في شَعْبِ تراجان، يُديرهما هاهنا وهاهنا، فينظرُ بهما تارةً أمامه وأخرى وراءه،  
ليرى هل يَرِصُدُه أحدٌ أو يتأثر حركاته وأعماله، ويُقلِّبهما أحياناً في صفحة  
السماء فيرى عيونَ النُّجومِ مُحدِّقةً فيه، فيخيّلُ إليه أنها عيون الله ناظرةً إليه  
نظرات الوعيد والتهديد، وكأنَّ صائِحاً يصيحُ به من جوانب الملاء الأعلى: اصنع  
ما تشاءُ أيها الرجل الخائن، واكتم عملك عن عيون الناس جميعاً، فإنني ناظرٌ  
إليك ومسجِّلٌ عليك هذه الجناية العظمى التي تجنيها على وطنك وقومك!  
فيتضائل ويتصاغرُ، ويمرُّ بخاطره قولُ أمِّه له في عهد طفولته فيما كانت تُمليه  
عليه من آداب الحكماء وأقوالهم: «إن كواكب السماء ونجومها تشهدُ بين يدي  
الله على جميع جرائم البشر التي ليس لها شهود!» ثم لا يلبثُ أن يُسرِّي عن نفسه  
ويذهبُ به خياله إلى المُلكِ وعرشه، وتواجه وصورَ جِانِه، وعِزِّه ومجده، ثم يلقي  
نظرةً عامةً على الجبال المحيطة به، والسُّهول المنبسطة من حوله، والأنهار  
المائجة بأشعة النجوم ولآلائها، فيقول: غداً تصبح هذه الجزيرة كلها جزيرتي،  
وأهلها خدَمي وحشَمي، يأتَمرون بأمرِي، ويُدْعُون لِقوتي وسلطاني؛ وغداً يتلألُ  
التاج على جبين بازيليد، فتُصبحُ أسعدُ نساء العالم جمعاء، وأصبح بسعادتها  
أسعدَ رجاله، ثم يُخيّلُ إليه كأنه يرى بازيليداً ماثلة بين يديه تنظرُ إليه نظراتها  
الساحرة الفاتنة، فيمدُّ ذراعيه لاستقبالها ويناجيها قائلاً:

إنني لا أزال على العهد الذي عاهدتُك عليه منذ فارقتُك حتى الساعة، لم أندم

ولم أتردد، ولا مرّ بخاطرٍ أن أَحْضَلَ بشيءٍ في العالم سوى أن أنيلك البُغْيَةَ التي تبتغينها.

إن القُبلة التي وضعتها على شفتي منذ ساعة قد أثلجتْ صدري وسكنتْ جميعَ مخاوفي ووساوسي، فأنا أقدم على الجريمة إقدام الهادئ المطمئن، لا أشعر بثقلها، ولا أفكر في نتائجها، بل لا أشعر أنها جريمةٌ يخفق لها قلبي خَفَقَةَ الأسف والندم.

لقد أقسمتُ لك على الوفاء بالعهد، ولا بد لي من أن أبرَ بقسمي، ولو كنتُ أقسمتُ لك على حرمان نفسي منك. وأنت الحياة التي لا حياة بدونها. لا سِتْحَيِّتُكَ أن أحنثَ في قسمي أو أن أخيسَ بعهدي (1).

أقسمتُ لك أن أخون وطني وهأنذا أخونه كما أردتِ راضياً مستسلماً لا أندبه ولا أرثي له، فِرْضاك هو الوطنُ كُلُّهُ، بل هو الدنيا بأجمعها؛ فليذهب الوطن كله، وليضنَّ العالمُ بأسره، فأنتِ لي كلُّ شيءٍ فيهما.

وكان يحدث نفسه بهذا الحديث وهو جالس على رابية مرتفعة شعب «تراجان» تحت القوس الروماني بجانب هضبة عالية من الحطب أعدت للإحراق إنذاراً للجيش بالعدو عند زحفه، وكانت الهضبات المحيطة بتلك الرابية أو المبعثرة من حولها سوداء قائمة تتراءى في ظلمة الليل ووحشته في صورٍ وحوشٍ مخيفة هائلة فاغرة أفواهها، أو مقعبة على أذنانها (2)، أو متوتبة للهجوم؛ فلا يقع نظره عليها حتى يطير قلبه شعاعاً، فيسرع إلى الاغتماض فلا يفارقه خيالها إلا بعد حين.

وما كان الرجل جبناً ولا رعيدياً، فهو بطل البلقان وحاميه وسيد من أنجبت به ميادين قتاله وساحات نزاله.. ولكنها الجريمة تنتزع قلب المجرم من بين

(1) خاس بعدهه يخيس؛ غدر ونكث

(2) مقعبة على أذنانها؛ جالسة مثل جلوس الكلاب.

جنبه، وتُعْشِي على عينيه البصيرتين فيُصبح بلا قلب وبلا نظر، يرى مالا يراه الناس، ويخشى مالا يَحْشَوْنَهُ؛ فهو لا يخاف الوحوش والهوام<sup>(1)</sup> والجن والشياطين والصخور والأحجار، بل يخاف جرائمه وآثامه!

وإنه لذلك إذ خِيلَ إليه أن إحداها تتحرك من مكانها وتَحْلَحَلُ وتَحْلَحَلُ الليث المتوتب<sup>(2)</sup> فاستطير قلبه فرقا ورعبا، وحاول أن يتهم نظره وسْتَرِيْبَ به، فلم يستطع؛ لأنه مالبت أن رأى في ذرّوة تلك الهضبة رأسا يتحرك وينظرُ إليه بعينين متقدتين، فصرخ صرخة الكلب الجبان الذي يَنْبُحُ الشَّبَحَ المقبل نحوه، لا جَرَأَةً وإقدامًا، بل جُبْنًا وفرقا؛ وقال: مَنْ هُنَا؟ فانحدر الشبحُ إليه من أعلى الهضبة وقال له بصوت خَشِينٍ أَجَشٍّ: لا تَرْتَعْ يا أبت<sup>(3)</sup> فأنا ولدك قسطنطين. فوثبَ من مكانه وثبّة الملسوع، وقال له بصوت متهدجٍ مختلق: ما الذي جاء بك إلى هنا، ومن أنباك أني في هذا المكان؟ قال له: وأنت ما الذي جاء بك إلى هنا يا أبت وماذا تُريدُ أن تفعل؟ إنني أسألك عن مثل ما تسألني عنه! فأسقطَ في يده<sup>(4)</sup> وطار طائر عقله، وأحسّ بالخطر المقبل، إلا أنه تجلّد واستمسك وقال بلهجة الأمر المسيطر: وما سؤالك عن مثل هذا أيها الفتى الجريء؟ وما شأنك بي وبما أفعل؟ وكيف فارقتِ حصنك في هذه الساعة من الليل؟ ومن أذنك بذلك؟<sup>(5)</sup> قال: لم أستأذن في ذلك أحدا غيرَ واجبي، إنني أعلم كل شيء يا أبت، وأعلم أنك ما جئتَ إلي هذا المكان إلا لترتكبَ أفضعَ جريمة يرتكبها إنسان في العالم! فصاح برانكومير وهو يتميزُ غيظًا وحنثًا<sup>(6)</sup>: كذبتَ أيها الغلام النوقح واجترأت على ما لم يجترئ عليه أحدٌ من قبلك! عد الآن إلى حصنك، ولا تَبَقْ

(1) الهوام ، دواب الأرض كالحيات ونحوها.  
 (2) تحلحل ، تحرك للانتقال من موضعه.  
 (3) ارتقاع يرتقاع ، خاف. لا ترتع ، لا تخف  
 (4) أسقط في يده ، تحير فلم يدر ماذا يفعل.  
 (5) الفصيح ، ومن أذن لك في ذلك.  
 (6) يتميز غيظًا ، يتقنع من الغيظ.

بعد صدور أمري إليك لحظة واحدة، فإن جادلتني في ذلك فأنت أعلم بما يكون؛ إنك لا تفهم شيئاً من أسرارِي وخَوِيصَاتِ نفسي،<sup>(1)</sup> ليس لك أن تسألني عنها لأنك جنديّ والجنديّ لا يسأل قائده، بل يأتمر بأمره لو كان الموت الزؤام، عد إلى مخفرك وتولّ حراسته بنفسك، ولا تأذن لجفّنك بالغمض لحظة واحدة؛ وسأحدثك غداً في هذا الشأن حديثاً طويلاً تعلم منه كلّ شيء.

فتضعض قسطنطينُ أمام هذه اللهجة الرزينة الهادئة، وجثا على ركبتيه بين يديه<sup>(2)</sup> وقال له: عفواً يا أبتِ، فقد أخطأتُ في سوء ظني بك، فأنت أشرفُ من أن تضع نفسك حيث أرادوا أن يضعوك، وما أحسب كلمتك التي قلتها للأميرة منذ حين في تلك الخلوة الرهيبة، إلا كلمة مزح ودُعاة أردت بها مداراتها وملاينتها، أو الهُزءَ والسُخريّةَ بها، حتى إذا فصلتُ عنك وخلا بك مكانك محوّتَ بظهر يدك عن فمك تلك القبلة الأثيمة التي ختمت بها ذلك العهد الأثيم، ثم قلت لها في نفسك إنني قد عاهدت الله أيتها المرأة البلهاءُ قبل أن أعاهدك على أن أكون أميناً لوطني ووفياً له، فلا أحفلُ بعهد غير هذا العهد، ولا بيمين غير تلك اليمين، ثم خفّت أن تكون قد استرايت بك<sup>(3)</sup> أو مرت بخاطرها خلجة شك في أمرك فأخذت للأمر حيطتها من طريق غير طريقك، فجثت بنفسك لتتولى حراسة التخوم وحمايتها، حتى إذا شعرت بسواد الجيش التركي مُقبلاً أشعلت النيران إنذاراً لجيشك بالخطر الداهم وخيبت آمال أعدائك فيما يكيدون لك ولقومك.

أليس كذلك يا أبتِ ؟ نعم، إنه كذلك بلا شك ولا ريب، فأشعل النار الآن ودعها تسطع في هذا الفضاء الواسع، وتبدد بالألأها هذه الظلمات المتكاثفة، فإني أشعرُ بسواد مقبل من بعيد يتقدم شيئاً فشيئاً، وما أحسبه إلا فيالق العدو وجيوشه؛ أنظري يا أبتِ واخترقِ بنظرك هذا الفضاء الشاسع، ألا ترى تحت خط

(1) الخويصة : تصغير الخاصة، يعني خصائصه الدقيقة.

(2) جثا يجثو : جلس بين يدي من هو أعلى منه جلسة التضرع والاسترحام.

(3) داخلتها الريبة.

الأفق أشباحاً تتحرك وتتقدم؟ إنه ليخيّل إليّ أنها أعلام الجيوش التركية تخفقُ في أجوائها، وربما لا تمضي ساعة أو بعضُ ساعة حتى تكون قد وصلت إلى هنا! أسرع بإشعال النار، أو عد أنت إلى قصرِك وخذ لنفسك راحتها فيه ودعني أتولى عنك إشعالها، فالخطرُ مُوشِك أن يقع ما من ذلك بد!

ما لي أراك جامداً يا أبت؟ وما هذا الدهولُ الذي يتولاك؟ أشعل النار أو تتخ عن طريقي لأشعلها، أشعلها فالوقت أضيّق من التأمل والتفكير!

فرغ برانكوميّر رأسه ونظر إلى ولده نظرة جامدة وقال له: إذن أنت تتهمني يا قسطنطين وترتاب بي؛ ما أشقاني وأسوأ حظي، ولدي وفلذة كبدي ووارثُ اسمي ولقبِي يتهمني ويتجسس عليّ ويقف وراء الأبواب ينظر من خصائصها<sup>(1)</sup> ليسمع ما يدور بيني وبين زوجي في خلوتي! فيا للعار ويا للشقاء! أيها الولدُ العاق المسكين! اذهب لشأنك فإني أريد أن أبقى هنا الليلة وحدي، ولا تجازف بمخالفة أمر قائّد تعود أن يأمر فيقطع، وليس من شأن مثله أن يصبر لحظة واحدة على مخالفة أمره، إنني سأبقى هنا وحدي وسأشغل النار بنفسي عندما أريدُ إشعالها، فلا حاجة بي إلى مشورتك ومعونتك؛ عد أدراجك إلى حصنك ولا تُضف إلى جريمة التجسس على أبيك جريمة معاندته ومخالفة أمره، واعلم أنك الآن جنديّ أمام قائده، لا ولدٌ بين يديّ أبيه.

فان قسطنطين وتأوه آهةً طويلة وقال: وارحمتاهُ لي ولك يا أبت! إن الأمر صحيحٌ لا ريب فيه، والجريمة على وشك الوقوع<sup>(2)</sup>.

ثم صمّت صمناً طويلاً لا تطرف له فيه عين، ولا تبعث له جارحة؛ ثم انتفض فجأةً وصاح بلهجة شديدة صارمة: أبي إنني سأبقى هنا!

فدهش ميشيل لعناده وصلابته وقال له: ما أراني الآن إلا أمام عدوٍ لدود لا

(1) ثقوبها.

(2) الأفضح أن يقال: والجريمة توشك أن تقع

ولدِ بَارٌّ مطيعاً! قال : لا يا أبتِ، بل أمامَ ولدِ بَارٍّ مطيع، ولولا ذلك ما جَسَمْتُ نفسي مشقَّةَ المجيءِ إليك في هذه الساعة من الليل، ولا وقفتُ أمامك هذا الموقفَ الخطرَ المميت؛ إنني لم أفعل ذلك من أجل نفسي، بل من أجلك ومن أجل شرفك. إنني أُحبك كما أحب وطني، وما على وجه الأرض شيءٌ أحب إليَّ منكما، وكما أتمنى له أن يعيش حراً مستقلاً، أتمنى لك أن تعيش شريفاً عظيماً، فإذا ضاع وطني وكان ضياعُه على يدك فَقَدْتُ في ساعة واحدة جميعَ ما أحب في هذه الحياة، فارحم ولدك المسكين الذي لا يزال يُضمر لك في قلبه حتى الساعة ذلك الحبَّ القديم الذي تعرفه، واستبَقْ له تلك السعادة التي لم يبق له في الحياة سعادة غيرها؛ تنح قليلاً عن طريقي وأذُنْ لي أن أصل إلى هذه الرابية لأشعل نازهاً فيراها حُرَّاسُ الروابي جميعاً فيُشعلوا نيرانهم، فينهض الجيش للدفاع عن الوطن؛ فقد أزِفَت الساعةُ ولم يبق سبيلٌ للأناة والتفكير.

ثم اندفع إلى مكان الرابية مسرعاً؛ فاعترضه أبوه ووقف في وجهه وقفة الصخرة العاتية في وجه الريح العاصف، وقال له: لا أذُنْ لك بالتقدم خطوة واحدة. ودون ما تريد الموتُ الزوَام!

فطاش عقلُ قسطنطينَ وجنَّ جُنونه وقال له : احذر يا أبتِ! فإن في هذه السماء المشرقة علينا بنجومها وكواكبها إلهاً ينتقم من الظالمين ويجازي الخائنين بخيانتهم شرَّ الجزاء، وما أنت بناج من عقابه، ولا مُفلت من جزائه، لقد حدَّثتني نفسي في تلك الساعة الهائلة التي سمعتك فيها تؤامرُ على وطنك وأمتك، بأفطع ما تحدَّثُ به نفسُ صاحبها، وكنت على وشك أن أرفع أمرك إلى الملك أنت وزوجك، وأكشَفَ له دَخِيلَةَ أمركما، فلم أفعل، لأنني ضنَّنتُ بك على الموت الدنيء الذي يموته الخائتُونَ والمجرمون أمثالك، وأشفقت على ذلك الشرف العظيم الذي بلغ في علوه مناطَ السماك الأعلى أن يُصبح مهاناً مذالاً<sup>(1)</sup>

(1) مذالاً، متضعا

تدوسه الأقدام، وتطوئه النعال: وكَرِهْتُ أن يمرَّ السابِلة من رِعا عِ الناسِ وِغوغائِهمْ  
على قِبرِكْ بَعدِ مِوتِكْ فِيبِصُّقُوا عِليه كَأنْما يِيبِصُّقونَ عِلى قِبرِ الشِيطانِ، وِربْما  
نَبِشُوا عِنْ جُثَّتِكْ، تَشْفِياً مِنْكَ وِانْتِقاماً، فأخْرِجُها مِنْ قِبرِها، وأسْلِموها عِلى  
جِوارِحِ الطِيرِ وِكواسِرِ الوِحْشِ تَمزِّقُ أشْلاءِها وِتَبْعثِرُ عِظامَها.

أشْفقتُ عِليكِ مِنْ كِلى هِذا، وأشْفقتُ عِلى نَفْسي أنْ يِرانِى النَاسِ فِى طَريقِى  
فِيشِيروا عِلىَّ بأصابِعِهمْ وِيقولوا: هِذا هِوَ الِوَلدُ السافلُ الدِنيءُ الَّذِى وَشَى بِأبِيه  
وأورَدَهُ مَورِدَ التَهْلِكةِ، فِبِئْسَ الِوَلدُ وِلبِئْسَ الِوالِدُ، وِلا يَلِدُ الخِونَةَ المِجرْمونَ غِيرَ  
الأدْنياءِ الساقِطينَ! فَهَنَنتُ نَفْسي وِملَكْتُ عِليها زَمامَها وِقلِبي يِذِوبُ حِزْناً  
وِلوَعَةً، وِقلتُ: لَعَلِني أَسْتَطيعُ أنْ أتَدارِكَ الأمرَ مِنْ طَريقِ غِيرِ تِلكِ الطَريقِ، وأنْ  
أتمكَّنَ فِى أنْ وِاحِدٍ مِنْ إنْقاذِ أبِى وِإنْقاذِ وِطْني مِنْ حِيثُ لا أخْسرُ وِاحِداً مِنْهما  
فِى سَبيلِ الآخرِ، فَجِئتُ وِقلِبي مِمتلئاً أَملاً وِرجاءً.

أما الآنَ وِقدِ يَئِستُ مِنْ كِلى شِئْ فِإنِى أكادُ أشْعِرُ بالِندَمِ عِلى ضِيا عِ تِلكِ  
الفِرصَةِ الِتي مِلكْتُها ساعَةً مِنْ الزِمانِ فِسرَّحْتُها وِلمْ أنْتَفِعْ بِها، وِكأنْ صِوتاً خَفِياً  
يَهْتَفِ بِى مِنْ أعْماقِ قِلبِى: إنْكَ قَدْ أَشْفقتُ عِلى نَفْسي مِرةً وِعلى أبِيكِ أُخْرى،  
وِلمْ يِخْطِرُ بِبالِكَ لِحِظَةً وِاحِدَةً أنْ تُشْفِقَ عِلى وِطْنيكِ وِقومِكِ.

فَأَسألُكَ مِرةً أُخْرى يا سِيدِى، وِربْما كانَتْ هِىَ المِرةُ الأَخِيرةُ، أنْ تَتَنَحى عِنْ  
طَريقِى، فِإنِني قَدْ عِزَمْتُ عِزْماً لا مِردُّ لَهْ أنْ أَقتَحِمَ هِذهَ الرِايَةَ لأضْرِمَ نارَها  
رَضِيتُ أمْ أبِيتُ، سَقَطتِ السِماءُ عِلى الأَرْضِ أمْ بَقِيتُ فِى مِكانِها!

فَأطَرِقُ بِرِانْكوْمِيرُ لِحِظَةً ذَهَبتْ بِهَ فِيهَا الِهمومُ وِالأفْكارُ كِلى مِذْهبِ، ثَمْ رَفَعْ  
رأسَه فِإذا دَمْعَةٌ كِبيْرَةٌ تَتَرَقِّقُ فِى عِينيهِ، وِنَظَرَ عِلى وِلدِهَ نَظْرَةً عَتبَ وِتَأْنِيبِ،  
وِقالَ لَهْ: نَعَمْ يا بَني! إنْكَ قَدْ أَخْطأتُ خَطأً عَظِماً إذْ أَضَعْتَ الفِرصَةَ العَظِيمةَ  
الِتي لاحتْ لَكَ، وِقدِ كانَ جَدِيراً بِكَ أنْ تَفْتَرِصَها وِلا تَسرِّحَها، وأنْ تَلقى فِى عِناقِ  
أبِيكِ فِى تِلكِ الساعَةِ الِتي رابَكَ فِيهَا مِنْ أمرِهْ ما رابَكَ، غِلا ثَقِيباً، تَقودُهْ بِهْ

إلى حضرة الملك متهما إياه بجريمة الخيانة الكبرى، ليأمر بقتله فتمتع نظرك برؤيته مصلوبا على باب المدينة والجماهير من حوله يبصقون على وجهه ويصفعون قذاله (1) ويرجمونه بالحجارة على مرأى من ضباطه وجنوده وأسرتة وأصدقائه، وربما اشترك هؤلاء جميعا معهم في عملهم. نعم إنها فرصة ثمينة جدا قد أضعتها بترددك وتحيرك، وقد كان جديرا بك أن تقدم إقدام العازم المصمم كما كان يفعل أبوك لو كان في مكانك، فقد عودت نفسي أنني إذا عزمت على أمر لا أتردد فيه ولا أترى، وقد عزمت الآن على ألا أشعل هذه النار فلا أشعلها ولا أذن لك بإشعالها، بل لا أذن لك بالتحرك من مكانك خطوة واحدة!

فوقف قسطنطين حائرا ملتاغا يترجح بين اللهف على وطنه الضائع والإشفاق على أبيه المسكين، لا يستطيع أن يخون وطنه الذي نبت في تربته وعاش بين أرضه وسمائه، ولا أن يعق أباه الذي أبرزه إلى الوجود ووهبه نعمة الحياة التي ينعم بها؛ فأسند رأسه إلى صخرة كانت بجانبه حائرا متضعضا تتوارد في رأسه الخواطر والأفكار يصرع بعضها بعضا ويشتد بعضها في أثر بعض، حتى بلغ منه الإعياء مبلغه فظفر إلى أبيه نظرة منكسرة حائرة تفيض حزنا وبأسا، وقال!

أيرضيك يا ميشيل برانكومير، يا بطل البلقان وحاميها وأشرف من أنجبت به أصلاب رجالها وأرحام نساها، أن يملك العدو علينا هذه البلاد العزيرة الكريمة فيقتل أبناءها، ويستحل حرمانها، ويُنكس صلبانها، ويهدم صوامعها ومعابدها، ويخرس فيها كل صوت غير صوت الأذان على ذرى المنائر (2)؟ قال: نعم يرضيني ذلك لأنني أحسنت إليها فكفرت بنعمتي وجازتني شرّ الجزاء على صنيعي! قال: إن لم تفعل ذلك من أجلها فافعله من أجل ربك، قال: أي رب تريد؟ إنني لا أفعل شيئا من أجله، فهو ممالئ مَداج لا يجب إلا قساوسته وكهانته،

(1) قفاه.

(2) وهذا لم يحدث في فتوحات البلاد التي فتحها المسلمون بشهادة المؤرخين النصارى، وكل هذا من اختلافات صاحب الرواية فتنبه.

ولا يرى رؤوساً تصلح للتيجان غير رؤوسهم الصغيرة الصلحاء، ولكنني سأنتزع بالرغم منه ذلك التاج من ذلك الرأس الذي توجّه به وأضعه على رأسي. قال: ولكنك تعلم يا أبت أن التاج الذي يتناوله مُتناوله من يد عدوّه ليس بتاج شريف. قال: ولكنه تاج على كل حال! قال: ألا تخاف أن يتقلّ يوماً على رأسك فيهبط إلى عنقك ويستحيل إلى طوق حديدي يخنقك ويقضى عليك؟ قال: إنك تهينني يا قسطنطين وتهددني؛ ولقد بلغت بوقاحتك الغاية التي لا غاية وراءها، فتجمل قليلاً ولا تنس أنك إنما تخاطب أباك! قال: عفواً يا أبت وغفراً، فلقد بلغ بي اليأس مبلّغه حتى أصبحت لا أفقه ما أقول!

ثم دنا منه وأمسك بيده وأنشأ يخاطبه بصوت ضعيف متهافت ويقول:  
عدّ إلى نفسك لحظةً واحدة يا أبت، وراجع فهرس تاريخك الشريف، واذكر تلك الأيام المجيدة التي أبلّيت فيها في الدفاع عن وطنك وقومك بلائاً سجّله لك التاريخ في صفحته البيضاء بأقلامه الذهبية، وتلك الوقائع الحربية الهائلة التي كنت تستقبل فيها الموت استقبال العروس ابتسامات عروسه الحسناء ليلة زفافها، وتضحك للهول فيها ضحك الزهر لقطرات الندى، والنبت لأشعة الشمس، ثم تعود منها منصوراً مظفراً يستقبلك نساء القرى وقتياتها في كل طريق مررت به بدفوفهنّ وعيدانهنّ يغنينك ويرقصن بين يديك، ويرتشفن قطرات الدماء من كؤوس جراحاتك، وينثرن الأزهار تحت قدميك، وينادينك باسم المخلص العظيم، وخليفة المسيح في الأرض.

اذكر تلك الأعلام الوطنية التي تخفق على أبواب المدينة وأسوارها، وترنحها طرباً وسروراً عند رؤيتك، وتراميتها على قدميك كلما مررت بها كأنها تحاول تقبيلهما ولثمهما؛ واخش إن مررت بها بعد اليوم أن تشيح بوجهها عنك احتقاراً وازدراءً، وتضم أطرافها إلى نفسها ترفعاً وإباءً، حتى لا تلمس جسمك ولا تخفق فوق رأسك.

لا تَبِعْ أُمَّتَكَ يَا أَبَتَ بَعْرَضٍ تَافَهُ مِنْ أَعْرَاضِ الْحَيَاةِ، فَالتَّاجُ الَّذِي يَتَنَاوَلُهُ صَاحِبُهُ مِنْ يَدِ عَدُوِّهِ لَيْسَ بِتَاجِ الْمَلِكِ؛ إِنَّمَا هُوَ قَلَنْسُوءَةُ الْإِعْدَامِ.

كَيْفَ يَهْتَوُوكَ ذَلِكَ الْمَلِكُ وَأَنْتَ تَرَى أُمَّتَكَ الْمَسْكِينَةَ رَاسِفَةً فِي قِيُودِ الذَّلِّ وَالِاسْتِعْبَادِ تَبْكِي وَتَسْتَصْرِخُ وَلَا مُنْجِدَ لَهَا وَلَا مُعِينَ، وَتَتُّنُ فِي يَدِ عَدُوِّهَا الْقَاهِرِ أُنَيْنَ الْمُحْتَضِرِ الْمُشْرِفِ وَلَا مَنْ يَسْمَعُ أُنَيْنَهَا، أَوْ يُصْغِي إِلَى شَكَاتِهَا.

كَيْفَ يَهْتَوُوكَ ذَلِكَ الْعَيْشُ وَأَنْتَ تَرَى أَبْنَاءَ وَطَنِكَ أَسَارَى أَدْلَاءٍ فِي قَبْضَةِ أَعْدَائِهِمْ يَسُوقُونَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ سَوَّاقَ الْجَزَارِ مَا شِئْتَهُ إِلَى الذَّبْحِ. فَإِنْ خَفَقَ قَلْبُكَ خَفَقَةَ الرَّحْمَةِ بِهِمْ أَوْ الْعَطْفِ عَلَيْهِمْ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمُدَّ يَدَكَ لِمَعُونَتِهِمْ وَإِنْقَادِهِمْ، لِأَنَّكَ قَدْ بَعَثْتَهُمْ وَنَفَضْتَ يَدَكَ مِنْهُمْ فَلَا سَبِيلَ لَكَ إِلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ.

اذكُرِيَا أَبَتَ تِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا هَذَا الشَّعْبَ الْمَسْكِينِ عَلَى يَدِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ مَا لَمْ يَلْقَ شَعْبٌ فِي الْأَرْضِ عَلَى يَدِ فَاتِحٍ أَوْ مَغْتَصِبٍ، أَيَّامَ كُنَّا غُرَبَاءَ فِي أَوْطَانِنَا، أَدْلَاءَ فِي دِيَارِنَا، نَمْشِي فِيهَا مَشْيَةَ الْخَائِفِ الْمَذْعُورِ، وَنَتَنَفَّضُ انْتِفَاضَةَ الْهَارِبِ الْمَتَكْرِرِ، لَا نَعْلَمُ أَيْسَقُطُ الشَّقَاءُ عَلَيْنَا مِنْ عَلِيَاءِ السَّمَاءِ، أَوْ يَنْبَعُثُ إِلَيْنَا مِنْ أَعْمَاقِ الْأَرْضِ؟ وَهَلْ يَخْرُجُ الْخَارِجُ مِنْهَا مِنْ مَنْزِلِهِ لِيَعُودَ إِلَيْهِ أَوْ لِيَرِدَ الْمَوْرِدَ الَّذِي لَا رَجْعَةَ لَهُ مِنْهُ أَبَدَ الدَّهْرِ؟

اذكُرِي أَيَّامَ كَانُوا يَمْلِكُونَ عَلَيْنَا كُلَّ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ حَيَاتِنَا حَتَّى زُرُوعِنَا وَضُرُوعِنَا<sup>(1)</sup>، وَمِيَاهِ أَنْهَارِنَا، وَأَشْعَةَ شَمُوسِنَا؛ فَأَصْبَحْنَا وَلَا شَأْنَ لَنَا فِي وَطَنِنَا إِلَّا كَمَا يَكُونُ لِعُمَّالِ الْمَزْرَعَةِ وَنَوَاطِرِهَا<sup>(2)</sup> مِنْ الشَّأْنِ فِيهَا وَيُحْصُونَ عَلَيْنَا كُلَّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِنَا، وَكُلِّ سَكْنَةٍ مِنْ سَكِّنَاتِنَا، حَتَّى نَبْضَاتِ قُلُوبِنَا وَخَوَاطِرِ أَفْكَارِنَا، وَفَلَتَاتِ الْأَسْنَتِنَا، وَأَحَادِيثِ آمَالِنَا، وَيُحَاسِبُونَنَا عَلَى النَّظَرَةِ وَاللَّفْتَةِ، وَالْأَنَّةِ وَالزَّفْرَةِ، وَالْقَوْمَةِ وَالْقَعْدَةِ، ثُمَّ يَقْضُونَ فِينَا بِمَا شَاءُوا مِنْ أَقْضِيَتِهِمْ فَلَا

(1) الضروع، جمع ضرع، ويقصد به الماشية الحلوب.

(2) النوطير، جمع ناطور، وهو عيدان من قصب أو من خشب تصنع على هيئة الإنسان وتكسى من ثيابه ثم تنصب في الحقل أو في الكرم لتذود عنه الطير.

يَنْحَسِرُ ظِلَامُ لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي إِلَّا عَنِ مَصْلُوبٍ تَهْفُوبِهِ الرِّيحُ السَّافِيَاتُ ، أَوْ طَرِيحٍ مُرْتَهَنٍ فِي أَعْمَاقِ السَّجُونِ!

اذكر أيام كانت كلمة الوطن جريمة يعاقب عليها قائلها بحرمانه من ذلك الذي يهتف باسمه<sup>(1)</sup>، وكلمة الدين إثما عظيماً يذهبُ بصاحبه إلى أحد القبرين، إما المنشور، وإما المحفور<sup>(2)</sup>.

اذكر الدموع التي كانت تَدْرِفُهَا الْأُمَّهَاتُ عَلَى أَطْفَالِهِنَّ الْمَذْبُوحِينَ فَوْقَ جُحُورِهِنَّ وَالصَّيْحَاتِ الَّتِي كَانَتْ تُصِيحُهَا الزَّوْجَاتُ وَالْأَخَوَاتُ الْوَاقِفَاتُ بِأَبْوَابِ السَّجُونِ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ وَإِخْوَتِهِنَّ، وَالزَّفْرَاتُ الَّتِي كَانَ يُصَعِّدُهَا الْيَتَامَى الثَّالِكُونَ عَلَى حَافَاتِ الْقُبُورِ حِينِيئاً إِلَى آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمُ الْهَالِكِينَ.

اذكر ذلك كله وَلَا تَنْسَهُ، لَا بَلْ أَنْتِ تَذْكُرُهُ وَتَعْرِفُهُ كَمَا تَعْرِفُ نَفْسَكَ، لِأَنَّكَ أَنْتِ الَّتِي قَصَصْتَهُ عَلَيْنَا وَمَثَلْتَهُ لِأَعْيُنِنَا وَقُلُوبِنَا، وَأَرَيْتَنَا مِنْ وِيَلَاتِهِ وَمَصَائِبِهِ مَا لَمْ نَرِهِ، وَلَطَّالَمَا كُنْتَ تَبْكِينَ عِنْدَ ذِكْرِهِ بُكَاءَ الطِّفْلِ الثَّالِكِ أُمَّهُ، فَنَبْكِي لِبُكَائِكَ وَنَنْشِجُ لِنَشِيجِكَ<sup>(3)</sup>.

أَلَا تَسْمَعُ هَذِهِ الْأَصْوَاتَ الْمَخِيفَةَ الَّتِي تَحْمِلُهَا إِلَيْنَا الرِّيحُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ؟ إِنَّهَا أَصْوَاتُ الْمَوْتِيِّ مِنْ جُنُودِكَ وَأَبْطَالِكَ يَضِجُونَ فِي قُبُورِهِمْ صَائِحِينَ : وَأَوَيْلَتَاهُ ، هَا هِيَ السَّمَاءُ تُوشِكُ أَنْ تَنْقُضَ عَلَى الْأَرْضِ! وَهِيَ أَقْدَامُ الْعَدُوِّ تَدْنُو مِنْ تَخُومِ الْبِلْقَانِ وَبِطَاحِهِ، وَتُوشِكُ أَنْ تَطَأَ بِنِعَالِهَا قُبُورَنَا، وَتَزْعِجَنَا مِنْ مَرَاقِدِنَا، وَهِيَ هُوَ فَائِدُنَا الْمَحْبُوبِ بِرَانِكُمْ الْعَظِيمِ الَّذِي سَفَكْنَا دِمَاءَنَا وَبَدَلْنَا أَرْوَاحَنَا فِي سَبِيلِ ظَفَرِهِ وَانْتِصَارِهِ يُسَاوِمُ عِدْوَنَا فِي وَطَنِنَا، وَيُحَاوِلُ أَنْ يَبِيعَهُ نِسَاءَنَا وَأَوْلَادِنَا الَّذِينَ تَرَكْنَاهُمْ أَمَانَةً فِي يَدِهِ؛ فَبِئْسَ سَبِيلُ اللَّهِ مَا سَفَكْنَا وَفِي ذِمَّةِ الْقَدْرِ مَا بَدَلْنَا! أَلَا تَسْمَعُ هَذِهِ الِهَمَّهَمَةَ الْهَابِطَةَ عَلَيْنَا مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ؟ إِنَّهَا أَصْوَاتُ

(1) يعني النفي.

(2) يعني الصلب على أعواد من خشب، أو الدفن في التراب.

(3) التشجيع : غصّة الحلق بالبكاء.

الملائكة الأبرار يَصِيحُونَ وَيَصْخَبُونَ وهم وقوف بين يدي ربهم يقولون له: حتى متى يَسْعُ حِلْمُكَ وَأَنَا تَكْ هَذَا الْخَائِنَ الْغَادِرَ الَّذِي يَبِيعُ أُمَّةً مِنْ أُمَّةٍ الْمَسِيحِ إِلَى أَعْدَائِهَا وَأَعْدَاءِ دِينِهَا، وَيَسْلَمُ إِلَيْهِمْ أَرْوَاحَهَا وَأَعْرَاضَهَا؛ فَاقْضِ اللَّهُمَّ فِيهِ قَضَاءَكَ الْعَادِلَ، وَاضْرِبْهُ الضَّرْبَةَ الَّتِي تَجْعَلُهُ عِبْرَةً لِلْخَائِنِينَ، وَمِثْلًا فِي الْغَادِرِينَ.

إِلَى أَيُّهَا الذِّكْرِيَّاتُ الْقَدِيمَةُ وَالْإِنْتِصَارَاتُ الْعَظِيمَةُ، وَالْأَيَّامُ الْغُرُّ الْمَحْجَلَةُ (1) الْمَكْتُوبَةُ بِمَدَادِ الذَّهَبِ فِي صَفْحَاتِ التَّارِيخِ، مُدِّي إِلَيَّ يَدَ مَسَاعِدَتِكَ. وَأَعِينِنِي عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ الْبَائِسِ الْمَسْكِينِ، وَتَمَثَّلِي أَمَامَ عَيْنَيْهِ لِتُذَكِّرِيهِ بِنَفْسِهِ وَتَارِيخِكِ، عَلَّهْ يَحْمَرُّ خَجَلًا عِنْدَ رُؤْيَتِكَ، وَيَقْشَعُرُ بَدَنَهُ رَهْبَةً مِنْ خِيَالِ الْجَرِيمَةِ الَّتِي يُرِيدُ ارْتِكَابَهَا.

إِلَى أَيُّهَا الْفَضَائِلُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَالْكَمَالَاتُ الْعَالِيَةُ، مِنْ شَرَفٍ وَعِزَّةٍ، وَتَرْفَعٍ وَإِبَاءٍ، وَأَمَانَةٍ وَإِخْلَاصٍ؛ تَعَالَيْنِ إِلَيَّ جَمِيعًا وَاجْتِئِنِ مَعِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَاضْرَعْنِي إِلَيْهِ أَنْ يُنْصَفَكُنَّ، وَيَعْدِلَ فِي أَمْرِكُنَّ، وَلَا يَقْضِي لِلرَّذِيلَةِ عَلَيْكُنَّ، وَقَلْنِ لَهُ: إِنَّكَ إِنْ خَذَلْتَنَا وَنَفَضْتَ يَدَكَ مِنَّا، فَلَنْ نَجِدَ لَنَا مِنْ بَعْدِكَ نَاصِرًا وَلَا مُعِينًا.

يَا أَطْفَالَ الْبَلْقَانَ وَصَفَارَهَا النَّاشِئِينَ مِنْ فِتْيَةٍ وَفَتِيَّاتٍ، أَقْبَلُوا إِلَيْهِ جَمِيعًا، وَاجْتَمِعُوا مِنْ حَوْلِهِ، وَتَعَلَّقُوا بِأَهْدَابِ ثَوْبِهِ، وَاسْكَبُوا مَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَسْكَبُوا مِنْ دَمُوعِكُمْ وَشَوْوُونَكُمْ (2) تَحْتَ قَدَمَيْهِ، وَقُولُوا لَهُ: رَحْمَةً بِنَا أَيُّهَا الْأَبُ الرَّحِيمُ وَالسَّيِّدُ الْكَرِيمُ وَحَنَانًا عَلَيْنَا، لَا تَكْلِنَا إِلَى أَعْدَائِنَا وَأَعْدَاءِ وَطَنِنَا، وَلَا تَجْعَلْ مُسْتَقْبَلِنَا وَمُسْتَقْبَلَ بِلَادِنَا فِي أَيْدِيهِمْ يَسُومُونَنَا الْخَسْفَ وَيُذَيِّقُونَنَا أَلْوَانَ الْعَذَابِ، فَإِنْ أَيْبَتَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلَ فِي فَجْرَدِ سَيْفِكَ مِنْ غَمْدِهِ وَقَطْعِ بِهِ أَعْنَاقَنَا، فَذَلِكَ خَيْرٌ لَنَا مِنْ هَذَا الْعَيْشِ الْمَوْلَمِ الْمَرِيرِ.

(1) الفرس الأغر، الذي في وجهه بياض. والمجمل، الذي في قوائمه بياض؛ ويقال: يوم أغر مجمل؛

يعني: يوم أبيض، من أيام المفاخر، أو من أيام النصر والسعادة

(2) الشنون: مجاري الدموع في العين.

وكان يتكلمُ ودموعُه تنهمرُ على خديه دائبةً ما تَهْدَأُ ولا تَرْفَأُ<sup>(1)</sup> وأبوه يضطربُ بين يديه اضطرابِ الدَّوْحَةِ<sup>(2)</sup> المائلة في مهابِّ الرياح الأربَع، ويزفرُّ زفراتٍ محرقةً ملتبهة، وقد قامت في نفسه تلك المعركةُ الهائلة التي تقومُ في كل نفسٍ شريفة بين الواجب والشهوة، يتمثل له الأوَّلُ في وجه قسطنطين العبوس المكتئب، فيرتعدُ ويضطرب، وتترأى له الثانية في وجه بازيليد الضاحك المشرق، فيخورُ ويتضعع ، لا يستطيع أن يُعْرِضَ عن نداء وطنه ، لأنه نداءٌ يصل إلى أعماق قلبه ويبلغ صميمه؛ ولا أن يفلت من سلطانِ شهوته، لأنه سلطانُ قاهر جبار لا يُفَلت منه قويٌّ ولا ضعيف. فوضع إحدى يديه على عينيه ، ومدَّ الأخرى أمامه كأنما يُطارِدُ أشباحًا مخيفة هائلة تتقدم نحوه، وظل يصيحُ بأعلى صوته: اصمِّتْ يا ولدي! لا أستطيعُ أن أحتمَلَ أكثر مما احتملت، آه من القدر وأحكامه، والدهر وتصرفاته، وويلي من الشقاء المكتوب والبلاء الحتم ، من له بيد قوية تنقذني من هذا الشقاء المحيط بي، فقد أصبحت وما على وجه الأرض أحدٌ أجدرُّ بالرحمة والشفقة مني، والعُنُوني جميعا يا أولادي وأبناء وطني، وانتقموا مني بأفزع أنواع الانتقام ، فإنني خائنٌ لئيم لا أستحق رحمتكم ولا مَغْفِرَتكم، ثم صمَّت صمًّا عميقًا لا ينبسُ فيه ولا يتحرك، وظل على ذلك هُنَيْهَةً ثم نظر أمامه نظرة الدَّهْشَة والذهول، فخيل إليه أنه يرى شبحًا يتقدمُ نحوه، فمدَّ يده إليه وأخذ يناجيه ويقول : بازيليد! ألا تستطيعين أن تُحلِّيني من ذلك القَسَم الذي أقسمته لك، فقد ضَعُفَ كاهلي عن احتمالهِ واحتمال أثقاله، لا أريد مُلكًا ولا تاجًا ولا صَوْلجانًا ، بل لا أريد أن أبقى على ظهر الأرض يومًا واحدًا ، الموت من لي به في هذه الساعة فأنجُو من همومي وآلامي.

فتهلل وجهُ قسطنطين غَيْبَةً وسرورًا ، ووَقَعَ في نفسه أن الرجل قد تَلَوَّمَ

(1) ولا تجف.

(2) الدوحة : الشجرة العظيمة.

واستخذى وبدأ يَسْتَفْطَعُ ذَنْبَهُ ويستهلوه، فترامى على عنقه واحتضنه إليه وظل يقولُ بِنِغْمَةِ الفارحِ المَغْتَبِطِ: أَحْمَدُكَ اللَّهُمَّ قَدْ أَنْقَذْتَ لِي أَبِي! فَحَنَّا أَبُوهُ عَلَيْهِ وَظَلَا متعانقين ساعةً لَا يُسْمَعُ فِيهَا إِلَّا تَرَدُّدُ أَنْفَاسِهِمَا وَنَشِيحُ بَكَائِهِمَا، ثُمَّ افترقا بَغْتَةً وَاشْرَابًا بِأَعْنَاقِهِمَا (1) حينما سمعا في لحظة واحدة حَسِيَسَ (2) جيش العدو وهو مقبل من ناحية الشَّمال، وكان ما سَمِعَاهُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ حَقِيقَةً لَا وَهْمًا، فَارْتَجَلَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ حَرَكَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ، إِذْ وَتَبَ قُسْطَنْطِينُ إِلَى الرَّايِيَةِ وَتَبَّةٌ عَظْمَى لِيُضْرِمَ نَارَهَا، وَوَتَبَ أَبُوهُ وَتَبَّةٌ أَعْظَمَ مِنْهَا فَاعْتَرَضَ سَبِيلَهُ وَصَرَخَ فِي وَجْهِهِ: قَفْ مَكَانَكَ، لَا تَتَقَدَّمْ خُطْوَةً وَاحِدَةً! فَأَصَابَ قُسْطَنْطِينُ مِثْلَ الْجُنُونِ وَقَالَ لَهُ: تَنَحَّ عَنْ طَرِيقِي أَيُّهَا الْمَجْرِمُ الْأَثِيمُ فَقَدْ فَرِغَ صَبْرِي. قَالَ: إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمُرَّ إِلَّا عَلَى جُثَّتِي. فَارْتَعَدَ قُسْطَنْطِينُ وَبَرَقَتْ عَيْنَاهُ وَذَهَبَتْ بِهِ الْأَفْكَارُ مَذَاهِبَهَا وَقَالَ لَهُ: أَيُّ كَلِمَةٍ هَائِلَةٌ نَطَقْتَ بِهَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الشَّقِي، وَأَيُّ قَضَاءٍ قَضَيْتَ بِهِ عَلَى نَفْسِكَ! تَنَحَّ عَنْ طَرِيقِي فَإِنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي بِأَفْظَعِ مَا تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسُ صَاحِبِهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ، قَالَ: إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقْتُلَ أَبَاكَ. قَالَ: أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَ كُلَّ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ وَطْنِي، إِنَّنِي وَقَفْتُ سَيْفِي طَوْلَ حَيَاتِي عَلَى خِدْمَتِكَ وَحِمَايَتِكَ وَالذُّودِ عَنْكَ أَيَّامَ كُنْتَ لَوْطَنِكَ وَقَوْمِكَ، أَمَا الْآنَ فَإِنِّي أَعْمِدُ ذَلِكَ السَّيْفَ نَفْسَهُ فِي صَدْرِكَ طَيْبَ النَّفْسِ مِثْلُوجِ الْفُوَادِ، لِأَنِّي أَعْتَقِدُ أَنِّي لَا أَعْمِدُهُ فِي صَدْرِ أَبِي، بَلْ فِي صَدْرِ خَائِنِ وَطْنِي. قَالَ: لَا تَنْسَ أَنْ لِي يَدٌ أَقْوَى مِنْ يَدِكَ وَسَيْفًا أَمْضَى مِنْ سَيْفِكَ. قَالَ: إِنِّي لَا أَجْهَلُ ذَلِكَ، وَلَكِنَّكَ تَقَاتَلْتَ فِي سَبِيلِ الدَّنَاءَةِ وَالْخِيَانَةِ، وَأَقَاتَلْتُ فِي سَبِيلِ الْوَاجِبِ وَالشَّرَفِ، وَاللَّهُ مَطَّلَعٌ عَلَيْنَا مِنْ عَلِيَاءِ سَمَائِهِ، وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ بَيْنَنَا، فَجَرَدَ بِرَانِكُمْ سَيْفَهُ وَهَجَمَ عَلَى وَلَدِهِ هَجْمَةً قَوِيَةً، فَجَرَدَ الْآخَرَ سَيْفَهُ وَتَلَقَى ضَرْبَاتِهِ بِأَشَدِّ وَأَنْكَى مِنْهَا، وَمَا هِيَ إِلَّا جَوْلَةٌ أَوْ جَوْلَتَانِ حَتَّى حَكَمَ الْقَاضِي الْعَادِلُ حُكْمَهُ فَسَقَطَ الظَّالِمُ وَنَجَّى الْمَظْلُومُ!

(1) أشراب (على وزن اطمأن) : رفع رأسه لينظر.

(2) الحسيس : الصوت الخفي.

فنظر قسطنطين إلى جُثة أبيه الساقطة تحت قدميه نظرة جامدة صامتة لا يعلم ما وراءها، ثم أغمد سيفه وصاح بأعلي صوته: رَحِمْتَكَ اللَّهُمَّ فَإِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَ غَيْرَ مَا فَعَلْتُ، ثُمَّ هَجَمَ عَلَى الرَّابِيَةِ فَأَشْعَلَ نَارَهَا فَضَاءَتْ بِهَا أَرْضَ الْبَلْقَانَ وَسَمَاوَهَا.

وفي اليوم الثاني نشر الملك ميلوش على الأمة هذا البلاغ:

«حاول العدو ليلة أمس تَبْيِيتَ جيوشنا وأخذها على غِرَّةٍ (1) وكاد يظفرُ بذلك لولا أن انتبعت الفرقة الأولى من الجيش ونهضت للدفاع بقيادة ضابطها العظيم قُسطنطين برانكومير، فأبَلَّتْ فِي الْمَعْرَكَةِ بِلَاءً عَظِيمًا، وَوَقَّعَتْ الْعَدُوَّ فِي مَكَانِهِ سَاعَةً كَامِلَةً، حَتَّى نَهَضَتْ بِقِيَةِ الْفُرُقِ لِمُسَاعَدَتِهَا، فَدَارَتْ مَعْرَكَةٌ هَائِلَةٌ بَيْنَ الْجَيْشَيْنِ انْتَهَتْ بِانْتِصَارِنَا وَانْهَزَامِ الْعَدُوِّ إِلَى مَوَاقِعِهِ الْأُولَى؛ وَلَكِنَّ الْمَصَابِ الْعَظِيمِ الَّذِي عَمَّ الْجَيْشَ وَشَمِلَ الْأُمَّةَ بِأَسْرَهَا هُوَ مَوْتُ قَائِدِنَا الْعَظِيمِ «مِيشِيلَ بَرَانكُومِير»، فَقَدْ وَجِدَ فِي أَثْنَاءِ الْمَعْرَكَةِ قَتِيلًا بِضْرِبَةِ سَيْفٍ فِي خَاصِرَتِهِ (2) بَيْنَ صُخُورِ تَرَاجَانَ تَحْتَ الْقَوْسِ الرَّومَانِي، وَسَيَحْتَقَلُّ بِتَشْيِيعِ جَنَازَتِهِ غَدًا احْتِفَالًا عَسْكَرِيًّا جَلِيلًا يَلِيقُ بِمَقَامِ شَهِيدِ الْوَطَنِ وَبَطْلِهِ الْعَظِيمِ!»

أما الذي خَلَفَهُ فِي قِيَادَةِ الْجَيْشِ فَهُوَ وَلَدُهُ الضَّابِطُ الشَّجَاعُ مَنْقُذُ الْأُمَّةِ وَالْوَطَنِ «قُسطنطين برانكومير».



(2) جنبه.

(1) التبييت: المفاجأة ليلاً. والغرة (بكسر الغين): الغفلة.



مضي

الليل إلا قليلاً وقسطنطين ساهرٌ في فراشه لا يغمض له جفن، ولا يطمئن له جنب، لأن مصراع أبيه في شعب تراجان لا يزال ماثلاً أمام عينيه ما يفارقه لحظة واحدة، وكان كأنه يرى الجثة بين يديه تتلوى وتتمرمر وتتنظر إليه نظرات حادة ملتبهة، وكأن جرحها الدامي بين أضلاعها لا يزال يتدفق منه الدم، فتار من مكانه هائجاً مذعوراً وحاول أن يطرد هذا الخيال عن نظره فلم يستطع، فمد يده إلى ذلك الجرح الموهوم المائل أمامه يريد أن يعترض سبيل الدم المتدفق منه فغلبه على أمره وازداد في تدفقه وانبثاقه حتى ملأ أرض الغرفة جميعها، وصبغ بلونه الأحمر القاني جميع ما فيها من فرش وأثاث وأنية وثياب، فاشتد فزعُه وارتباعُه ولم يستطع أن يحتمل أكثر مما احتمل، فوقع مغشياً عليه.

وظل على ذلك ساعة حتى انقثت حرارة دمه<sup>(1)</sup>، فاستفاق من غشيته وجلس إلى نفسه يناجيها ويقول:

إنني على ثقة من نفسي، لم أفعل إلا ما يجب على كل رجل شريف أن يفعله، فما هذا الخوف الذي يساورني! وما هذه الصور المخيفة التي تتراءى لي في يقظتي وأحلامي؟ كان يجب علي أن أضرب لأنه ما من ذلك بد ففعلت، فلم أرتاب في عملي! ولم أرتعد ارتعاد المجرمين الآثمين؟ إن الرجل لا يخاف إلا ذنبه، وأنا لم أذنب إلى أحد، لأن الرجل الذي قتلته كان يريد أن يقتل أمة بأسرها فأنقذتها بقتله، بل أنقذت عشرين أمة من أمم المسيح في أوروبا. ألا يجوز للإنسان أن

(1) انقثات، هدأت.

يقتل الأفعى دَفْعًا لأذاها ، والوحش كَسْرًا لشَرَّتَه (1) واللص اتقاء لضرره! إنني لم أفعل غير ذلك، فمالي أرى وجه السماء أحمرَ قانسًا ليلته ونهاره، ومالي أجد مذاق الدم في كل كأس أشربها من ماء أو خمر؛ ومالي لا أستطيع النظر إلى يدي خوفًا ورُعبًا ! إنني لم أقتل أبي، ولكنني أَحْيَيْتُهُ، لأنه إن كان يحيا اليوم في قلوب الناس حياة العظمة والمجد، وكان تمثاله إلهًا معبودًا يُطِيفُ به الشعب (2) ويُقبل أركانه ويتبرك بلمسه واستلامه، وكان اسمُه طُغْرَاءَ الأسماء الشريفة المسجلة في التاريخ. فإنما ذلك بفضل الضربة التي ضربته إياها، ولولا ذلك لعاش بقية حياته عَيْشَ الأذنياء الساقطين، أو مات مَوْتِ الخونة المجرمين.

وهنا انتفض واصفر وارفض جبينه عَرَقًا (3) وقال بصوت ضعيفٍ مختنق: نعم ! إن ذلك كله صحيح لا ريب فيه، ولكنني قتلتُ أبي!

ثم لم يلبث أن عادت إليه مخاوفه ووساوسه، فرأى العجته والمصرع، والطعنة النجلاء، والدم المتدقق، وسمع تلك الأصوات التي تهتف به في كل مكان: «يا قاتل أبيه! يا أكبر المجرمين! يا عارَ البشريّةِ وشنارها!» (4) فجئن جنونه، وثار نائره، وعادت له سيرته الأولى.

ولم يزل هكذا ليله كله: يهدأ حينًا ويثور أحيانًا، حتى نشر الفجرُ رايته البيضاء في آفاق السماء، فاستروح رائحة الأنس وشعر ببرد الراحة، فأوى إلى مضجعه. كذلك كان شأن قسطنطين دائما، وكذلك كانت أكثر لياليه مُذْ حدث ذلك الحادث العظيم.



(1) حدته ونشاطه.

(2) أطاف يطيف، أحاط، أما طاف (بغير الهمزة) فمعناها: دار

(3) ارفض، تفرق، ويقال: ارفض جبينه عرقا، يعني: تناثر العرق على جبينه.

(4) الشنار: أقبح العيب.



## دخلت

ميلتزا غرفة قسطنطين صباح ليلة من تلك الليالي الطويلة  
 الليلية، وببيدها باقة من الزهر تريد أن تقدمها إليه، فرأته  
 مضطجعا على كرسيه مستغرقا في نومه، وأثار الدمع ظاهرة بين أهداب عينيه  
 وفي صفحتي خده فرثت لحاله وجلست تحت قدميه ترقب يقظته رقبتي المجوسية  
 طلعة الشمس من مشرقها، فحمل النسيم إلى رأسه نفحات تلك الأزهار، فانتعش  
 وتحرك في مكانه وفتح عينيه فرأها فابتسم وتهلل وقال: ميلتزا! قالت: نعم  
 يا سيدي، نعتت صباحا ونعمت جميع أيامك بكونها وأصائلها<sup>(1)</sup>، ثم مدت  
 يدها إليه بالباقة وقالت له: قد اقتطف لك صباح اليوم هذه الأزهار الجميلة  
 التي تحبها أكثر من سواها، لتستروحها فتروخ عن نفسك بريأها<sup>(2)</sup> همومها  
 وأحزانها. فتناول الباقة منها واستشقتها وتنفس تنفسة طويلة، ثم نظر إليها  
 نظرة حلوة عذبة وقال لها.

أتعلمين يا ميلتزا أنني أستنشق في هذه الأزهار التي تهدينها إلي أنفاسك  
 الأريجة العطرة، وأن الذي ينعشني ويحييني ويرفح عني همومي وآلامي في هذه  
 الباقة إنما هو أريجك لا أريج الأزهار. فارتعدت ميلتزا لأول كلمة حب سمعتها من  
 فمه، وظل قلبها يخفق خفقانا شديدا، وملك الدهش عليها عقلها ولسانها فلم  
 تستطع أن تنطق بحرف واحد، وظلت شاخصة إليه ببصرها، فاستمر في حديثه  
 يقول: لقد كنت أطلب الموت قبل دخولك وأتمناه تمنيًا شديداً، حتى رأيتك ورأيت

(1) البكور، جمع بكرة، وهي أول النهار. والأصائل : جمع أصيل، وهو آخر النهار.

(2) الريا (بفتح الراء وتشديد الياء) : العطر.

هذا الجمال المتلألئ في عينيك وشَمَمْتُ أنفاسكِ العِطْرَةَ المنبَعثةَ من أوراق  
أزهارك؛ فأحببت الحياة من أجلك، وأصبحت أتمنى أن أعيش لأراك وأقضى  
بقية أيام حياتي بجانبك، فشُكراً لك يا صديقتي، فأنت النّجْمَةُ الوحيدة الباقية  
في سماء حياتي بعد ما عَرَبَت جميع نجومها وكواكبها، والشُّعاعُ المضيءُ الذي  
ينبعثُ إلى أعماق سجنِي المظلمِ الحالِكِ فيبددُ ظلمته ويُنيرُ جوانبها ويملأ قلبي  
أملاً ورجاءً، والواحةُ المَخْصِبةُ الخُضراءُ التي ألجأ إليها كلما قطعْتُ مرحلةً  
في صحراء هذه الحياة المحرقة فأنامُ تحت نخيلها وأبترِدُ ببرِد مياهاها. قالت:  
ليتني أستطيع أن أكون عند ظنك بي يا سيدي بل ليتني أستطيع أن أقاسمَكَ هذه  
الهمومَ والأحزان التي تعالجُها، أو أَحتمِلها عنك جميعها حتى لا أراك بين يدي  
إلا باسمًا متطلقًا في جميع أنائِكَ وساعاتك، إنني أمتك الوضيعة المسكينة يا  
سيدي، وليس لفتاة مثلي أن تسألك عن سبب همومك وأحزانك، ولكنني أستطيع  
أن أضرعَ إليك أن تسرِّبها عن نفسك وتهونها عليك، فأنت رجل فاضل شريف،  
وقد قلت لي قبل اليوم: إن الرجل الفاضل الشريف يعيش من شرفه وفضيلته  
في سعادة لا يهنأُ بمثلها الملوكُ في قصورهم. قال: ومن أين لك أنني رجل  
فاضل شريف؟ قالت: لو لم تكن كذلك لما أحببتك! فابتسم قليلاً وقال: إذن  
أنت تحبينني يا ميلتزا! قالت: نعم يا سيدي، أكثر من كل شيء في العالم، ولولا  
كرامة أمك عليك وجلال ذكرها في قلبك لقلتُ لك إنها ما كانت تحبك في  
حياتها أكثر مما أحبك اليوم! فأطرق قسطنطين لتلك الذكرى المؤلمة، ومرت  
بجبينه سحابة سوداء قاتمة، فرفع رأسه وقال لها: حسْبُكِ يا ميلتزا، لا تُذكّرني  
بأمي، فما أحسبها الآن إلا ناقمةً عليّ في قبرها، تلعنني وتستعدي ربها عليّ<sup>(1)</sup>.  
وتسأل الله صباحها ومساءها أن يعاقبني وينتصف لها مني؛ واخجلتاهُ من  
نفسي يوم ألقاها في تلك الدار، ويجمعُ الموقف العظيم بيني وبينها! فارتاعت

(1) تستعدي، تستغيث.

ميلتزا عند سماع هذه الكلمة وذهبت بها الظنون كل مذهب، وظلت تنظر إليه نظراً غريباً حائراً، وقد بدأت تفهم ذلك السرّ الهائل الذي أعياها أمره زمناً طويلاً، وتدرّك السبب في حزن قسطنطين هذا الحزن الشديد الذي يُقيمه ويُقعده ويساور نفسه ويُلقها منذ قتل أباه حتى اليوم. وكأنه قد ألمّ بما دار في نفسها<sup>(1)</sup> وتردّد في خاطرها، فظلّ ناظراً إليها بلهفٍ وشوق ينتظرُ أولَ كلمة تنطق بها بعد هذا الصمت الطويل انتظارَ المتهمِ أولَ كلمة ينطق بها قاضيه بعد سماع دفاعه، حتى رآها تبسّم وتتهلّل وتقول له: هون عليك الأمر يا سيدي، ولا ترّتب في نفسك ولا في ضميرك، فما أنت بمجرم ولا قاتل، ولكنك رجلٌ شريف، ولولا أنك كذلك لما أحببتك، فمدّ يده إليها فتناول يدها وقال لها: أتعديني يا ميلتزا أن تكتمني في صدرك كلّ شيء؟ قالت: نعم أعدك وعداً لا أخيسُ به. قال: وشيءٍ آخر يا ميلتزا.. قالت: وما هو يا سيدي؟ فأدناها منه وضَمَّها ضَمَّةً خفيفةً إلى نفسه وقال لها: أتقسمين لي على الحب حتى الموت؟ قالت: نعم يا سيدي أقسم لك. قال: بِمَ تُقسمين؟ قالت: بكل ما تسكُن به نفسك، قال: ضعي يدك على هذا الخنجرِ وأقسمي به، قالت: أفعل على شرط واحد، قال: وما هو؟ قالت: أن تُهديني إياه بعد ذلك. قال: وماذا تصنعين به؟ قالت: أقتل به نفسي يوم يحلُّ بك مكروه! فناولها إياه وهو يقول في نفسه: ربما حلَّ بي عما قريب ذلك المكروه الذي تتوقعين! فوضعت يدها على الخنجر وأقسمت به أن تحافظ على حبه والإخلاص له حتى الموت؛ فتهلّل قسطنطين فرحاً وسروراً، ونزعه من خاصرته وعلقه في منطقتها ثم ضمها إلى صدره ضمةً شديدة وقبّلها في ثغرها قبلة كانت عزاءها الوحيد عن كل ما مر بها في حياتها.



(1) عرف ما يدور في نفسها.



## حديث

جرح

الجندي «أورش» في إحدى المعارك فلزم بيته وتولت ابنته «أنا» معالجته، وكان يزوره بعضُ أصدقائه من الجنود في الفيئة بعد الفينة<sup>(1)</sup>، فزاره في أحد الأيام الجندي «لازار» وكان لا يزال حارساً لقصر القائد برانكوميير، والخادم الأمين لأرملته بازيليد وثقتها المؤمن على جميع أسرارها ودخائلها، فقال له «أورش» حين رآه: هل من جديد اليوم يا لازار؟ قال: نعم قد فشل جيشنا في الواقعة الأخيرة كما فشل في الواقعة الماضية والوقائع التي تقدمتها، ولا أعلم متى تنتهي هذه الانكسارات، فقد تمت عدتها حتى أمس عشا، ولا أعلم ما يأتي به الغد؛ أما القتلى والجرحى فهم كثيرون لا يُحصى لهم عدد، وما بيتك بالبيت الوحيد الذي تترقق فيه الدماء والدموع، ففي كل بيت من بيوت المدينة شاكون ومتألّمون.

فقال أورش: لا ريب أن قسطنطين غير أبيه، ولقد فقدنا بفقد ذلك الرجل العظيم قائداً كان خير القواد وأبرعهم وأوسعهم علماً وتجربة وأعلمهم بموارد الأمور ومصادرها، لم يُفلت النصر من يده في جميع معاركه أكثر من مرة أو اثنتين، حتى مات في الواقعة الأخيرة وسيفه مُصلت في يده ميتة البطل الشريف، فمات بموته الظفر والانتصار، وأدار الزمان وجهه عنا، ولا يعلم إلا الله متى يُقبل بعد إداره.

فقال له ابنته «أنا» وكانت جالسة تحت قدميه تضمد له جراحه: لقد قلت لي يا أبت قبل اليوم: إن قسطنطين قائدٌ عظيم لا يُشق له غبار، فما هذا الرأي الذي تراه فيه الآن؟ قال: نعم، كان قائداً عظيماً في حياة أبيه وتحت لوائه، وأما اليوم

(1) الحين بعد الحين.

وقد استقل بالرأي وحده وانقطع عنه ذلك الوحي الذي كان يرشده ويهديه، فقد انتقض عليه أمره، وأصبح خائراً مضطرباً لا يدري ماذا يفعل ولا كيف يصرف وقائعه ومواقفه؟ فقالت: إن جيشنا لم ينكسر قط في واقعة من تلك الوقائع التي تذكرونها كما تتوهمون، لأنه لم يتخل عن مركزه ولم يسلم شعباً واحداً من تلك الشعب التي يحرسها، أما القتلى والجرحى وكثرتهم فهم في جيوش أعدائنا أكثر منهم في جيوشنا أضعافاً مضاعفة، وحسبنا ذلك فوزاً وانتصاراً.

فقال لازار: لقد كانت خطة القائد ميشيل خطة دفاع محض لا يحول عنها ولا يتزحزح، والجبال بين يديه تحميه وتحفظ مواقفه، أما قسطنطين فقد أخذ نفسه بالهجوم على العدو في حصونه ومواقفه، وترك الجبال التي تحميه من ورائه، فكثرت القتلى والجرحى في جيشنا، وهي خطة مخاطرة ومغامرة لا يركبها إلا القائد اليأس أو المجنون؛ ولا أعلم أي الرجلين هو؟

قال أورش: أحسبه يائساً قانطاً، فإني أشعر كما يشعر كثير من الناس أن سخطته قد تغيرت منذ موت أبيه تغيراً عظيماً، وأصبح حزينا منقبضاً لا تقارق الكآبة عينيه وجبينه، ولم أر في حياتي تاكلاً حزن على فقيدته حزن هذه المسكين على أبيه. قال لازار: ولقد حدثني بعض خدم القصر وحراسه أنه يستيقظ من نومه في بعض لياليه صارخاً متفرعاً يستغيث ويستنجد كأنما هو يندم على جريمة ارتكبها، أو يخاف شبحاً هائلاً مقبلاً عليه.

فقالت «أنا»: إنكم تظلمون قائدنا ظلماً عظيماً، فقسطنطين أفضل القواد وأشرفهم، وما هو بجان ولا مجنون، فنظر إليها لازار شزراً وقال: بل هو جان أو على وشك ارتكاب جريمة هائلة، فقد راى منه مذو ولي قيادة الجيش عفو عن الأسرى، الذين يقدمون إليه، وإنزاله إياهم منزلة الإكرام والإعزاز، واهتمامه بشأنهم كأنهم ضيوف وافدون، لا أعداء محاربون؛ كما راى منه أكثر من ذلك اعتزاله الناس وانقطاعه عنهم جميعاً، حتى عن زوج أبيه التي تحبه حب الأم

ولدها وפלذة كبدها، فإنه مذ هجر قصرها وعاش في بيته الجديد الذي يسكنه اليوم لم يَزُرْها مرة واحدة ولا دعاها إلى زيارته حتى الساعة.

فقال «أنا»: أكل أفعال قسطنطين قد أصبحت مُرّية عندكم لا تُحْمَلُ على مَحْمَلِ حَسَن، حتى إكرامه للأسرى المساكين وإشفاقه على ذُلهم وضعفهم؟ قال: ليس هذا رأيي وحدي، بل رأي أكثر الجنود، فقد أصبحوا يعتقدون أن قائدهم يقودهم إلى الموت الزؤام عمداً لسرّ خفيّ يَضْمُرُه في نفسه، وما أحسبهم قادرين على احتمال هذه الحالة زمناً طويلاً. فاحتدمت «أنا» غيظاً وقالت: إن قسطنطين أشرف مما تظنون، وهل ترون مُحالاً أو غريباً أن يحزن المرء على أبيه بعد فقدّه؟ ثم التفتت إلى أبيها وقالت له بسذاجة ورقة: أقسم لك يا أبت لو أن مكروهاً أصابك من هذا الجرح الذي في فخذك . لا أذن الله بذلك ولا قدره - لحزنتُ عليك حزناً يصغرُ بجانبه حزنُ قسطنطين على أبيه! فابتسم أبوها وضمها إلى صدره وقال لها: إننا لا نذهبُ في أمره يا بُنيّة حيث ظننت، ولا نتهمه بخيانة ولا ممالأة ، ولكننا نخافُ عليه أن يكون قد نصدّ اليأس إلى قلبه فضعضه، وأن تكون نفسه قد حدّثته بمسالمة أعدائه ومؤاتاتهم ، فأعدّ لذلك العدة التي رأها؛ واليأس هو الخديعة الكبرى التي يدسُّها الشيطانُ دائماً في نفوس الأمم الضعيفة التي يريدُ قتلها والقضاءَ عليها.

وهنا دخل بعض الجنود لعيادة أورش، وتلاههم آخرون من بعدهم، واشتركوا جميعاً في الحديث، وأنشأ لآزار ينفثُ سموم سعايته ووشاياته في صدورهم، حتى أجمعوا رأيهم على أن قسطنطين يخون أمتة ويمالئ أعداءها عليها، وأن الرأي الصواب أن يرفعوا أمره إلى الملك ليأمر بعزله عن القيادة ويعهدَ بها إلى غيره، ثم انصرفوا.



## الدسيسة



**بينما** كان قسطنطين جالساً صبيحة يوم في غرفته، إذ دخل عليه حارسُ بابِه يستأذنه لبازيليدَ أرملةِ أبيه، فانقبض صدره واشمأزت نفسه، لأنه لم يكن رآها ولا أذن لها بمقابلته منذ مات أبوه حتى اليوم، فأذن لها بعد لأي<sup>(1)</sup>، فدخلت عليه وحيته وجلست بجانبه، وأنشأت تُعاتبه في انقباضه عنها ووَحشته منها وسوء رأيه فيها، وتُقسم له بحرمة ذلك الدفين الكريم الذي كان يُحبه ويُحبها أنها لا تُضمِر له في نفسها مَوْجدةً ولا حقداً، ولا تحملُ له بين جنبِها غيرَ الحب الخالص والوُدِّ المتين، ثم قالت له: إنني برغم آلامي وأحزاني التي أعالجها منذ نزلت بي تلك النازلة العظمي حتى اليوم، لم أربداً من أن آتي إليك في هذه الساعة الشديدة عليك راجية أن أعينك عليها وأهونَ عليك أمرها، وربما وجدتُ السبيل إلى خلاصك منها، فالتفت إليها مندهشاً<sup>(2)</sup> وقال: أي ساعة تريدان؟ وما هي الشدة التي أنا فيها؟ قالت: كأنك لا تعلم أن الخطر الذي يُحيطُ بك عظيم جداً، لا قبَلَ لك باحتماله، وأن جنودك قد أصبحوا ينقمون عليك نِقمةً عظّمةً، ويُبغضونك بغضاً لا حدَّ له، ولا تُحدّثهم نفوسهم بشيء سوى تلمس الطريق إلى الوصول إليك ليقتلوك، فاصفرَّ وجهه وقال: وماذا ينقمون مني؟ قالت: ينقمون منك مخاطرتك بهم في تلك المعارك الهائلة التي تكاد تقتلهم وتقضى عليهم، وفشلك في جميع الوقائع التي قمتَ بها منذ وليتَ قيادةَ الجيش حتى اليوم، وقد امتد بهم الحقد عليك إلى سوء الظن بك، فأصبحوا يعتقدون أنك خائنٌ ممالئٌ للعدو، وأنت ما سلكتَ

(1) بعد بقاء وشدة.

(2) الفصيح، دهشاً أو مدهوشاً.

هذه الخطة المَعْوَجَّة في حروبك إلا لتمكّن الأعداء من اجتياز الحدود واقتحام البلاد. فانفض انتفاضةً شديدة، واربد وجهه، ونزت في رأسه سَوْرَةُ الغضب (1) وقال: مَنْ ذا الذي يتهمني بالخيانة؟ قالت: جنودك ورجالك، قال: إنهم كاذبون فيما يقولون ما في ذلك ريبٌ إن كنت صادقةً فيما تقولين، قالت: ما كذبتُ عليك قبل اليوم ولا غَشَشْتُكَ في النصيحة، ولقد زادهم حقداً عليك وموجدةً أن العدو قد اجتاز الجبال ليلة أمس، وربما لا يمرّ يومان أو ثلاثة حتى يكون قد وصل إلى أبواب العاصمة، وسيصل بريدك الساعة فينقلُ إليك هذا الخبر المحزن الأليم، فصرخ صرخةً عظمى دوت بها أرجاء الغرفة، ووثب من مكانه نائراً وهو يقول: أه يا وطني العزيز! وابتدرَ البابَ يريدُ الخروج منه؛ فأمسكت بيده واجتذبتَه إليها وقالت له: مهلاً، أين تريد؟ قال: أدعو جنودي وأجمع من تفرّق منهم في الثكنات والقلاع، وأذهب بهم إلى الحدود للدفاع عن القلعة الكبرى؛ فالوطن في خطر عظيم . قالت: لا تفعل ، فقد خرج الأمر من يدك، واعلم أن جميع جنودك المقيمين في ثكنات المدينة وأرباضها (2) قد أصبحوا متمرّدين عليك لا يطيعونك ولا يأترون بأمرك ! فلم يحفلُ بكلامها وأسرع إلى النافذة وأشرفَ منها على الساحة العامة وظل يصيح: أيها الجنود! النّفيرِ النّفير! الأُهبَةَ الأُهبَةَ! (3) فما سمع الجند صوته ورأوا وجهه حتى هاجوا واضطربوا وأخذوا يصيحون داخل القصر وخارجَه: ليسقط الخائن! ليسقط المجرم! فظل يُشير إليهم بيده يحاولُ إسكاتهم واسترعاءً أسماعهم وهم مستمرّون في ضجيجهم وصياحهم لا يهدأون ولا يفترون، فعاد إلى مكانه يائساً متضعضاً ليس وراء ما به من الهمّ غاية.

فدنت بازيلاً منه وقالت له: قد علمت الآن أنني لم أكذبك القول ولم أخدعك،

(1) تحرك في نفسه الغضب الشديد.

(2) الأرباض : الضواحي.

(3) انضروا انضروا ، تاهبوا تاهبوا

وأني لم أقدم إليك مَقْدَمِي هذا في هذه الساعة العصبية إلا لتخليصك وإنقاذك وإنقاذ الوطن وأبنائه، فرفع نظره إليها مندهشاً وقال: أنت؟ قالت: نعم أنا، في الوقت الذي لا أجد فيه بجانبك من يأخذ بيدك أو يعينك على أمرك، فأصغ لما أقول: إن الملك سيזורُ قصرَكَ الساعةَ ليستجدَّ بك على دفع هذا الخطر الداهم، وإن شئت فقل ليستعين بك على الاحتفاظ بتاجه الذي يضمن به ضنَّه بحياته ولا يحفل بشيء سواه، وقد علم الجندُ ساعةَ حضوره فهمَ ينتظرونه في هذه الساحة، حتى إذا طلع عليهم في موكبه هُرِعوا إليه<sup>(1)</sup> ضاجين صارخين يتقدمهم جرحاهم وزمناهم<sup>(2)</sup> ورَمَوْك بين يديه بتلك التهمة العظيمة التي يردِّدونها الآن ويصيحون بها في كل مكان، فإما أن يصدِّقهم فقد هلكت هلاكاً لا نجاة لك من بعده، أو يرتاب بهم فلا يرى له بدءاً من أن يسلك الحكمة في مداراتهم ومدافعتهم، فيأمر بعزلك عن القيادة والعهد بها إلى غيرك إرضاءً لهم، وتسكيناً لثائرهم، فإن فعل فقد انتشرت لك في الأمة قالة سوءٍ لا تستطيع أن تمحو عارها عنك أبد الدهر.

فظل يرتعدُ ويضطرب ويُرِدُّ بينه وبين نفسه: رَبِّ ماذا أصنع فالخطبُ أعظمُ مما أحتمل! فاقتربت منه ووضعت يدها على كتفه وحنَّت عليه حنوَّ الأم على رضيعها، وقالت له بتلك النعمة العذبة الجميلة التي قتلت بها أباه من قبل: نعم يا بُني، إن الخطب أعظم مما تحتمل، ولم يبق بين يديك إلا أن تسلك تلك الطريق التي شرع أبوك في سلوكها قبل موته ثم عجزَ عن الاستمرار فيها إلى نهايتها، فخسرها وخسر حياتَه على أثرها. فنظر إليها مندهشاً وقال: ماذا تُريدين؟ فصممت لحظة ثم استجذت قوتها وشجاعتها وقالت له: أتدرى يا قسطنطين لم ذهب أبوك إلى شعب تراجان

(1) هرعوا (بالبناء للمجهول) ، أسرعوا

(2) الزمني (كجرحي) . جمع زمن (ككتف) ، وهو المصاب بعلة مزمنة .

وجلس تحت القوس الروماني في الليلة التي مات فيها؟ فرجعت إلى ذهنه تلك الذكرى المؤلمة وقد بدأ يفهم ما ترمي إليه في حديثها ، فراعته الأمر وهالته؛ إلا أنه تَماسكَ وتَجَلَدَ وظل ناظرًا إليها نظرات جامدة ساكنة أشبهَ بنظرات الموتى في النَّزَعِ الأخير؛ فاستمرَّت في حديثها تقول: إنه ذهب إلى ذلك المكان ليستقبلَ الجيشَ التركيَّ عند قُدومه ويأذن له باجتياز الحدود والوصول إلى فيدين، ولو فَعَلَ لَنَجَا الوطنَ من خطر عظيم، ولأَطْفَأَ نارَ هذه الحرب التي تلتهم البلاد التهامًا يكاد يقضى عليها ، وكان اليوم ملكًا جالسًا على عرش البلقان لا تماثلاً أَجُوفَ منتصبًا في الميدان، ولكنه عجز في الساعة الأخيرة عن الاحتفاظ بقوته وعزيمته، فما رأى سوادَ الجيشِ التركيِّ مُقْبِلًا نحوه حتى نَسِيَ عُهُودَهُ ومواثيقَهُ ، وابتَدَرَ الرَّايَةَ الأولى<sup>(1)</sup> فأشعل نارها وأيقظ الجيش من رَقَدته واستناره للأهبة والدفاع، وما كفاه ذلك حتى جَرَدَ سيفه للقتال وخاض المعركة بنفسه، وظل يُقاتل حتى هَلَكَ!

فعجب قسطنطين لتلك الجرأة الغريبة التي لا يشتمل على مثلها صدرُ امرأة في العالم ولا رَجُل، ثم قال لها بهدوء وسكون لا يعلم إلا الله ما يَكْمُنُ وراءهما: وبعدُ فماذا تُريدِين؟ فأطَمَعَهَا فيه سكوته وهُدُوءُهُ، وخيَّلَ إليها أنه قد استَخَذَى للأمر واستسلم ، فقالت: إن العهد السلطاني لأبيك بِمَلِكِ البلقان لا يزال باقياً بيدي حتى الساعة، وهو مُذَيَّلٌ بتوقيع السلطان ومختومٌ بِخَتَمِ آلِ «برانكومير» فلسنا في حاجة إلى تغيير حرف منه أو كتابة عهد جديد، وقد قابلتُ رسولَ القائدِ التركي ليلة أمس واتفقتُ معه على كل شيء؛ فكن أعقلَ من أبيك وأبعدَ منه نظرًا، واعلم أن الترك لا يَدُّ مُقْتَحِمُو هذه البلاد وأخذوها ، أَبْطَلُوا أمَ أَسْرَعُوا، فقد اجتازوا عَقبَةَ الجبال اليوم، وسيجتازون بقية العقباتِ غداً أو بعد غدٍ، ما من

(1) ابتدرها ، سبق إليها .

ذلك بُدِّ، فخيرُ لك أن تُهادِنَهُمْ وتُسالِمَهُم وتُتخذَ عندهم يداً تتفَعكُ لديهم غداً ،  
وأن تفتحَ لهم بيدك ما اسْتغَلَقَ عليهم من أبواب البلاد بدلاً من أن يغلبوك عليها،  
لتحتفظَ لنفسك بذلك العرشِ الذي هو عرشك وعرش أبيك من قبلك لولا طمعُ  
ذلك المختلسِ وفضوله!.

إن الجنودَ يَضُجُونَ وَيَصْخَبُونَ ويوشكُ الملكُ أن يَحْضُرَ فيرفعوا إليه أمرك  
ويهتفوا بين يديه بسقوطك وخيانتك، فيأمرُ بالقبضِ عليك وسَجْنِكَ، فاغْضِبْ  
لنفسك وافعل ما أشرتُ به عليك لتستطيع أن تأمرَ أنت بالقبضِ عليه وسَجْنِهِ بعد  
بضع ساعات ، ويدين لك البلقان من البُسْفُورِ إلى الأدریاتيك.

أما أنا فإنني لا أطلبُ جزاءَ عندك على نُصْحِي لك وإخلاصي إليك، سوى  
أن تمنحني لديك منزلةَ الأمِ الحَنُونِ، وتأذنَ لي أن أجلسَ على أدنى درجةٍ من  
درجات عرشك، أخدمُك وأمدُك برأيي ومشورتي، وأستظلُّ بظلالِ مجدك  
وشرفك حتى الموت. ثم أخرجتُ من حقيبتها العهدَ السلطانيَّ وأرتهُ إياه، فأخذ  
يقروهُ وهو في يدها حتى أتمه ، فقالت له: قم الساعةَ وسافرِ إلى الحدودِ وقدَّ  
جَيْشَكَ بنفسك وتقهقرَ به كأنك تفعل ذلك مضطراً ، وأنقذَ نفسك ووطنك من  
هذا الخطرِ العظيم.

هاهي طبولُ الملكِ تقتربُ منا شيئاً فشيئاً، واعلم أن قلمَ القدرةِ معلقٌ الآن  
بين أَصْبَعِي اللهُ لِيكْتُبَ به في صفحات الغيبِ أحدَ الحُكْمين: إما لك بالصُّعودِ  
إلى العرشِ، أو عليك بالهبوطِ إلى أعماقِ السجونِ؛ فأحْسِنِ الاختيارَ لنفسك ولا  
تكن عدوِّها الأحمقُ المأفون.

فرفع رأسه ونظرَ إليها نظرةَ ناريةٍ ملتهبةٍ، لورسمتها ريشةَ المصوِّرِ الماهرِ  
لأحرقَتِ القرطاسَ الذي رُسمتَ فيه! ثم قال لها بهدوءٍ وسكونٍ: قد قلتُ لي  
يا سيدتي منذ هُنيهةٍ إن أبي قد ذهبَ إلى شعبِ تراجانِ ووقفَ تحتِ القوسِ  
الرومانيِ ليستقبلَ الجيشَ التركيَّ عندِ قدمه، ويأذنُ له بالمرورِ، فخانه عزمه

ونسى ميثاقه فلم يفعل، وأنا أقول لك: إنك مخطئة في سوء ظنك به، فإنه لم يزل متمسكاً برأيه في تلك الليلة محافظاً على عهده، حتى حالت الحوائل بينه وبين الوفاء..

قالت: وما الذي طرأ عليه؟ قال: طرأ عليه الموت، فحال بينه وبين ما يريد! قالت: وهل تعلم كيف مات؟ قال: نعم أنا أعلم الناس بذلك، لأنه لم يكن حاضراً معه في تلك الساعة وفي ذلك الموقف سواي. فارتعدت ونظرت إليه مندهشة وقالت له: ألم يمُت فتيلاً بيد أعدائه؟ قال: لا، بل بيد أصدق أصدقائه! بل بيد أقرب الأقرباء عليه وأمسهم به رَحِمًا<sup>(1)</sup>، فطاش عقلها وجن جنونها وصاحت: ماذا تريد أن تقول؟ قال: أريد أن أقول. إنني أنا الذي قتلته بيدي جزاءً له على خيانتة لوطنه! قالت: أنت يا وَلَدَهُ وَفَلْدَةَ كِبِهِ؟ قال: نعم، وأنت التي وضعت في يميني ذلك السيف الذي قتلته به، لأنك أفسدت نفسه وقتلت شعوره، وأغرَّيت به بخيانة وطنه، وسلبته جوهرة الشرف الثمينة التي كانت تضيء ما بين جنبيه، وكانت أكرم الجواهر وأغلاها، فلم أرُ بُدًّا من أن أقتله لأستنقذ الوطن من يده، فتألَّمي ما شئت أيتها المرأة الشريرة وتعدَّبي، وتجرَّعي كؤوس الحسرة والندم على ما أقلت من يدك من أمانيك وأمالك. وحسبي انتقاماً منك على جريمتك التي أجرمتها إليّ وإلى أبي وإلى الطبيعة، أن تعلمي أنني أنا الذي خيبت أمالك وهدمت بيدي ذلك الصرح العظيم الذي أنفقت في تشييده أيام حياتك.

نعم أنا الذي قتلته بيدي واقترفت أعظم جريمة يقترفها إنسان في العالم، ولولاك لما أقدمت على ذلك ولا خطر بيالي أن إنساناً في الوجود يُقدم عليه، ولو كان باستطاعتي أن أكتشف أمرَك وأهتك الستر عن جريمتك لفعلت، ولكنني لا أستطيع أن أفعل، إشفافاً على سمعة ذلك الرجل المسكين الذي قضى عليه سوء حظله أن يكون شريكاً لك في حياتك وفي جرائمك؛ فعيشي معذبة مثلي فريسة

(1) أمسهم به رحماً، أصدقهم قرابة.

لآلامك وأحزانك، واستنفدي ماء شؤونك<sup>(1)</sup> حُزناً على العرش الذي فاتك والزَّوج الذي رحل عنك؛ واسهري ليليك الطوال خائفة مُرْتَعِبَةً من شبح الجريمة التي اجترمتها، وخيال الدماء التي سفكتها، وليطرب قلبك خوفاً وهلعاً كلما ذكرت أنك قد وضعت في يد الولد سيفاً ليقتل به الوالد؛ فمات الوالد فتيلًا، وعاش الولد معذباً؛ ولتطل حياتك على ظهر الأرض لتطول آلامك وأحزانك، حتى إذا نزل بك الموت نزل بهيكل يابس من العظم، قد أحرقته اللوعات، وأضوته الحسرات<sup>(2)</sup>، واقتصرته الهموم والأحزان.

وهنا سمعت ضجة عظيمة في الساحة، وهاتمون يهتفون: الملك! الملك! الملك! فاكتاب قسطنطين وتقبض وجهه، وتهللت بازليد وتطلقت، وطوت وثيقة العهد برفق ووضعتها في جيبها، ثم قالت له: نعم، إنني سأعيش يا قسطنطين حزينة باكية كما قلت، ما من ذلك بُدٍّ، ولكنني لا آذن لك أن تعيش يوماً واحداً بعد اليوم على ظهر الأرض حتى لا ترى بعينيك مصائب وآلامي، وتشمتم بهمومي وأحزاني، فقد دسست لك الدسيصة في الجيش حتى ثار عليك ووضع في عنقك ذلك الغلّ الثقيل، غلّ الخيانة الذي لا خلاص لك منه، وسترى الآن بقية ثأري وانتقامي!

وهنا دخل الملك والجنود من حوله يتقدمهم «لازار» وهو يصيح وهم يصيحون من خلفه: إنه خائن يا مولاي، إنه قد مالأ الأعداء علينا، إنه أفنى رجالنا، ورمل نساءنا، ويتم أطفالنا؛ فأعدنا عليه<sup>(3)</sup> وانتقم لنا منه وللوطن! والملك يقول: دعوني وشأني، لا أصدق شيئاً مما تقولون، ثم التفت إلى قسطنطين وقال له: أيها البطل العظيم؛ إن الوطن في خطر، وقد جئت أستجد بك على دفع هذه النازلة التي نزلت بنا، وسأكون في المعركة المقبلة جندياً من جنودك، أقاتل بجانبك،

(1) ماء جفونك.

(2) الضاوي، الهزيل الضعيف؛ ويقال، أضواء المرض؛ هزله وأضعفه.

(3) أعدنا عليه، انصرنا. أعدى يعدي، كالتى يلقي

وأبارك خطواتك، ولا تبتسّ بما يقول هؤلاء القوم، فإنه لا يعلمون من أمرِك شيئاً؛ إنا لا نعرفُ اليومَ تحت سماءِ البلقان بطلاً غيرك، وما كُنّا نعرفُ قبل اليوم بطلاً غيرَ أبيك ، ولا نُضمِرُ لكما في قلوبنا غيرَ الإجلال والإعظام، لمكانكما من خدمة الوطن وحمايته والدُّودِ عنه، أمّا الحظُّ الذي فارقك في تلك الوقائع الماضية فأبشرك أن عهد فراقه لا يطول ، وأنه سيعود إليك بعد أيام قلائل بالوجه الطلّق الجميل، وستمحو بانتصاراتك المقبلة جميع آثار تلك الهزائم السالفة. ثم التفت إلى الجنود وقال لهم: يا أبطال البلقان وحمّاته، لا تخذلوا قائدكم، ولا تخفروا ذمّته (1)، فهو سيُدكم اليوم، وابنُ سيدكم بالأمس، واعلموا أنني لا أصغي إلى تهمّة لا أعرف لها برهاناً ولا دليلاً.

فصمت القومُ صمتاً عميقاً، وساد بينهم السكوتُ هنيئاً، وقد بدأت مَراجِلُ غيظهم وموجدهم تفتّر وتتقاصر، وهنا انفرج الجمع وإذا بيازليد تتقدّم رويداً رويداً كما ينساب من مَكَمَنه الأرقم (2) نحو موقف الملك حتى مثّلت بين يديه؛ وقالت له بصوت عالٍ سمعه جميعُ الجنود: أنا التي أتهمُّه يا مولاي، وأنا التي أُقدّمُ لك على تهمته الدليل والبرهان! فدهش الملك عند رؤيتها ، وقال : الأميرة؟ قالت: نعم يا مولاي، أرملةُ القائد ميشيل برانكومير، إنني أتهم هذا الرجل بخيانة قومه وممّالة أعدائهم عليهم، وأقول لك: إنه كتب بينه وبينهم عهداً على أن يفتح لهم أبواب البلاد في الساعة التي يُريدونها، فيمنحوه في مقابل ذلك عرشَ البلقان وتاجه، وقد دعاني الساعة ليُشركني معه في هذه الجريمة التي يُريد اقترافها، ويسألني أن أساعده عليها؛ فلم أَرِداً من أن أرفع أمره إليك؛ أما البرهان الذي تُريده فما هو ذا. ومدّت يدها إليه بتلك الوثيقة، فتناولها الملك ذاهلاً وأخذ يقرؤها وهو يرتعد ويرتجف ويقول في نفسه: ماذا

(1) لا تخونوا عهد.

(2) الأرقم : أخبث أنواع الأفاعي.

أرى؟ إخلاء الحدود، اجتياز الجبال، العرش، التاج، ختم برانكومير! يا للهول ويا للفضاعة! ثم نظر إلى قسطنطين فإذا هو تمثال جامد لا يتحرك ولا يطفرف (1)، فتقدم نحوه خطوة وقال: ما هي كلمتك يا قسطنطين؟ فصمت ولم يقل شيئاً، فالتفتت إليه بازييد وقالت له: أستطيع أن تُتكر شيئاً مما أقول؟ فأوثقتة وثاقاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً، إلا أنه رفع رأسه ونظر إليها نظرة غريبة مبهمة لم يعلم غيرها ماذا يُريدُ بها، ثم عاد إلى صمته وإطراقه، فهاج الجند وأخذوا يصيحون: القتل القتل! الانتقام الانتقام! وظل الملك يُشيرُ إليهم بيده يدعوهم إلى السكون والهدوء حتى هدأوا، فتقدم نحو قسطنطين خطوة ثانية ووضع يده على كتفه وسأله مرة أخرى: ماذا تقول يا قسطنطين؟ دافع عن نفسه، فإن سكوتك حجةٌ عليك، لا تصمت ولا تطرق، وقُل كلمةً واحدةً فإنني أُصدِّقك في كلِّ ما تقول. فاستمر في صمته وإطراقه وهو يقول في نفسه: كيف أدافع عن نفسي، وأي سبيل أسلكه إلى ذلك، والسبيلُ جميعها وعرةٌ شائكة، لا تقوى قدمي على اجتيازها، إنني لا أستطيع أن أبرئ نفسي إلا إذا اتهمت أبي، وقد قتلته مرةً فلا أقتله مرةً أخرى! ثم ابتسم ابتسامة الممتعض وقال في نفسه: قد كنتُ أطلب الموت بكل سبيل حتى جاءني يسعَى إليّ بقدميه. فلم أخشاه وأرتاعُ منه؟ فليكن ما أراد الله أن يكون. ثم رفع رأسه إلى الملك وقال له: ليس عندي ما أقوله لك يا سيدي، فاصنع بي ما تشاء.

فصاح الجمهور: ليسقط الخائن! ليقتل المجرم! وهجموا عليه ليفتكوا به؛ فاعترض الملك طريقهم وقال لهم: دعوهُ وشأنه، فإن أمره موكولٌ إلى مجلس القضاء، أما نحن فليس بين أيدينا إلا أن نفكر الآن في الطريق إلى الدفاع عن وطننا وحمائته، ودفع هذه النازلة المُلِّمة، فسيروا بنا أيها الجنود الأبطال إلى ساحة الحرب وأنا قائدكم.

(1) يطفرف، يحرك جفنه.

ثم التفت إلى الحُرَّاس وأمرهم بالقبض على قسطنطين والذهاب به إلى السجن حتى يَفْصَلَ القضاءُ في أمره.

فهتف به قسطنطين وقال: لي كلمة واحدة أحب أن أقولها لك يا مولاي، فَذِعْرَتْ «بازيليد»، وارتعد «لازار»، وأشْرَبَّ القوم بأعناقهم، والتفت إليه الملك وقال: ماذا تريد أن تقول؟ قال: أنت تعلم يا مولاي أنني جندي قديم، وُلِدْتُ في ساحة الحرب، وَقَضَيْتُ حياتي في ميادينها، ولا أمنيّة لي في الحياة غير أن أموت فيها: وأنت الآن قائد الجيش وصاحب الأمر والنهي فيه، فَأَذِّنْ لي أن أُسِيرَ في ركابك جُنْدِيًّا صَغِيرًا، لا قائِدًا ولا أميرًا، لأقاتل معكم حيث تقاتلون، ولك على عهد الله وميثاقه ألا أعود من تلك المعركة إلا منتصرًا أو محمولًا على الأعواد<sup>(1)</sup> إلى حيث أوي إلى منزلي الأخير الذي لا رجعة لي منه، عَلَنِي أَكْفَرُ بِذَلِكَ عن زَلَّتِي التي زَلَلْتَهَا، وَأَنْتَمُّ من نفسي بنفسي، فعجب الملك لأمره وظل يُرَدِّدُ نظره في وجهه هُنَيْهَةً وكأنَّ نفسه كانت تُحدِثه ببراءته وطهارته، إلا أنه لم يلبث إلا قليلًا حتى زَوَى وجهه عنه<sup>(2)</sup> وقال له: لا أَسْتَطِيعُ أن أَدْنَى لك بشيء، فالموتُ في ساحة الحرب منزلةٌ لا ينالها إلا الأَمْنَاءُ المخلصون.

فتنفسَ الجمعُ الصُّعْدَاءَ<sup>(3)</sup> وخرج الملكُ تحييطًا به جنوده وحُرَّاسه وهو يَرَدِّدُ بينه وبين نفسه: وارْحَمْتَاهُ لك أَيُّهَا الفتى المسكين!

فتقدم الحُرَّاس إلى قسطنطين فَقَيِّدُوهُ، وجاءت بازيليد فوقفت بجانبه وقالت له بصوت خافت لا يسمعه سواه: نعم، إنني سأقضى ما بقي من أيام حياتي حزينَةً باكيةً متألِّمةً كما قلت، ولكني قد انتقمْتُ لنفسي، وحَسْبِي ذلك وكفى، فلم يرفع نظره إليها احتقارًا وازدراءً، بل رفع رأسه إلى السماء وقال: قد كنتُ أسألك الموت يا ربّ في كل حين، وَأَصْرَعُ إليك فيه ليلي ونهاري، فبعثت به إليّ،

(1) النعش.

(2) زوي وجهه : قبضه.

(3) نفسا طويلا.

ولكن في أفضح صورة وأهولها؛ فامدّد إليّ يدَ مَعُونَتِكَ ورحمتِكَ ، لأَسْتَطِيعَ  
 أن أشرب الكأسَ حتّى تُمَالَتْهَا<sup>(1)</sup> وخذ بيدي في شدّتي فقد تخلّى الناسُ جميعاً  
 عني، وأصبحتُ أحتَمَلُ ما أحتَمَلُ من الآلامِ وحدي، وليس بجانبِي من يخفّفُ عني  
 لوعتي، أو يمسح بيده دَمْعَةً من دُموعي.

فخرجت «ميلترا» من وراء ستارٍ كانت مختبئةً في طياته، وتقدّمت نحوه وجثّت  
 تحت قدميه الموتقّين وقالت له: لست وحدك يا مولاي فهأنذا! فتهلّل وجهه بعد  
 عبوسه وقال: أحمدك اللهم حمداً كثيراً . ثم خرج مع الجنود يرّسّف في قيوده،  
 حتّى وصلوا به إلى السجن فأودعوه، وأوصدوا الباب من دونه، فربّضت ميلترا  
 على عتبة الباب رُبُوضَ الكلب الأمين على قبر سيده الدفين، وأنشأت تندّبهُ  
 وتبكيه بكاءً تهتز له جوانبُ الأرض وتتداعى له أركان السماء!



(1) الثمالة : البقية الأخيرة في الكأس.

## التمثال



### انتصر

الملك في الواقعة التي حضرها وقاد فيها الجيوش بنفسه انتصاراً عظيماً كان الفضل الأكبر فيه لتلك الروح الدينية التي كان يبثها في نفوس جنده أثناء المعركة، فقد كان يمشي بين الصفوف بطليسانه الأسود ، والصليب في يده يهتف باسم المسيح والمسيحية، وينادي: دافعوا يا أبناء يسوع عن دينكم وكنيستكم ، واعلموا أنكم إن غلبتم اليوم على أمركم فلن تقوم للصليب قائمة أبد الدهر. وهم يستبسلون ويستقبلون ويصبرون للموت صبر الكرام، حتى برقت لهم بارقة النصر، فأطبقوا على جيوش العدو من كل جانب، فتقهقرت أمامهم إلى ما وراء الحدود، وتخلت عن جميع المعابر والجبال التي اجتازتها بالأمس. فاحتفل الشعب بهذا النصر احتفالاً عظيماً دام عدة أيام، ولم يكن للناس حديث فيه سوى حديث قسطنطين وجريمته التي اجترمها والجزاء الذي سيلقاه في سبيلها، وكلهم يتمنى بجذع أنه (1) أن يشاهد مصرعه، ويرى دماءه تتدفق من بين لحيته (2).

ولم يزل هذا شأنهم حتى دنا اليوم الذي يجتمع فيه مجلس القضاء للنظر في تلك القضية، فذهب الملك ليلة المحاكمة إلى السجن في سجنه، وخلاً به ساعة يسأله عن جريمته وشركائه فيها وأعوانه عليها. وحاوله في ذلك محاولة كثيرة، فلم ينطق بشيء ولا دافع عن نفسه بحرف واحد، حتى عي الملك بأمره (3) فأمر بإخراجه من السجن إلى الساحة العامة المقام فيها تمثال أبيه، وأمر أن يُشد

(1) جذع الأنف : قطاعه.

(2) اللحيان ، منبتاً شعر اللحية على الجانبين. يريد عنقه.

(3) تحير الملك في أمره

بأغلال إلى قاعدة التمثال نكايَةً به وتمثيلاً، ثم قال له : انظر أيها الخائن ماذا بنى أبوك لنفسه من المجد، وماذا صَنَعَتْ يَدُكَ بِذَلِكَ الْبِنَاءِ الَّذِي ابْتَنَاهُ ! وَتَرَكَه وانصَرَفَ.

فلما انفرد بنفسه أطرق ساعةً يُفَكِّرُ فِي شَأْنِهِ وَفِي مَصِيرِهِ الَّذِي صَارَ إِلَيْهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى التَّمْثَالِ، وَكَانَ اللَّيْلُ قَدْ هَدَأَ وَسَكَنَ وَنَامَتِ كُلُّ عَيْنٍ فِيهِ حَتَّى عُبُورِ الْعَسَسِ وَالْحِرَّاسِ، فَأَنْشَأَ يُنَاجِيهِ، وَيَقُولُ:

هَنِيئًا لَكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ مُجْدُكَ وَعَظْمَتُكَ وَتَمَثَالُكَ الشَّامِخُ الرَّفِيعُ الذَّاهِبُ بِعُلُوِّهِ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ! هَنِيئًا لَكَ الصَّيْتُ الْبَعِيدُ وَالشُّهْرَةُ الذَّائِعَةُ وَالشَّرْفُ الْخَالِدُ الْمَسْجَلُ لَكَ فِي صَفْحَاتِ التَّارِيخِ، وَأَنَّ النَّاسَ لَا يَمُرُّونَ بِتَمَثَالِكَ حَتَّى يَجْتَوُوا تَحْتَ قَاعِدَتِهِ جُثِيهِمْ تَحْتَ قَدَمَيِ الْإِلَهِ الْمَعْبُودِ!

أَتَرَى بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّكَ مَظْلُومٌ أَوْ مَغْبُورٌ، أَوْ أَنَّ الضَّرْبَةَ الَّتِي أَصَابَتْكَ مِنْ يَدِي قَدْ حَرَمَتْكَ شَيْئًا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ تَنْدُبُهُ وَتَأْسَفُ عَلَيْهِ؟

لَقَدْ كُنْتَ فِي السَّاعَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ أَيَّامِ حَيَاتِكَ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْإِنْحِدَارِ إِلَى قَبْرِكَ إِلَّا بَضْعُ خَطَوَاتٍ قِصَارٍ، فَكُلُّ مَا كَانَ مِنْكَ لَكَ أَنْتَ أَنْقَذْتَكَ مِنْ تِلْكَ الْمَيَّةِ الدَّيْنِيَّةِ السَّافِلَةِ الَّتِي كُنْتَ تَرِيدُهَا لِنَفْسِكَ، وَقَدَّمْتَ إِلَيْكَ بَدَلًا مِنْهَا مَيَّةً شَرِيفَةً مَقْدَّسَةً تَرْمُقُهَا الْعَيُونَ وَتَتَقَطَّعُ مِنْ دُونِهَا الْأَعْنَاقُ؛ وَالْبَسْتُكَ تَاجًا أَشْرَفَ مِنْ ذَلِكَ التَّاجِ الَّذِي كُنْتَ تَطْلُبُهُ وَتَسْعَى إِلَيْهِ، وَأَجْلَسْتُكَ عَلَى عَرْشِ أَرْفَعٍ مِنْ جَمِيعِ عُرُوشِ الْأَرْضِ، وَهُوَ عَرْشُ التَّارِيخِ!

لَا تَسْتَبِقْ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا مِنَ الضُّغْنِ عَلَيَّ، وَلَا تُضْمِرْ لِي فِي قَلْبِكَ وَأَنْتَ فِي عَالَمِ الْحَقِيقَةِ الْمَجْرَدَةِ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُ كَذِبٌ وَلَا رِيَاءٌ، غَيْرَ مَا يَجِبُ عَلَى الْمَرِيضِ الْمَبِيلِ<sup>(1)</sup> أَنْ يُضْمِرَهُ لِطَبِيبِهِ الَّذِي شَفَاهُ مِنْ دَائِهِ، وَأَنْقَذَهُ مِنْ شَقَائِهِ،

(1) أبل المريض، نجا من مرضه.

فإن كان لابد لك أن ترى أنني قد أجرمت إليك ووترتك<sup>(1)</sup> فهأنذا أكفر عن  
جريمتي بأعظم ما كفر به مجرم عن جريمته!

انظر يا أبتِ ماذا صنعتَ فَعَلْتِكَ التي فَعَلْتَ بولدِكَ، هاهو الغلُّ يُحيطُ بعنقه  
حتى كاد يخنقه، وها هي القيودُ تَعْضُ قَدَمَيْهِ وتُدْمِيهِمَا، وها هو السيفُ مجردٌ  
فوق هامته لا تَطَّلُ الشمسُ من مَشْرِقِهَا حتى يسقطُ عليها فيفصلها عن جُثَّتِهَا،  
وها هم الناسُ جميعاً رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، يلعنونه بألسنتهم وقلوبهم  
في كلِّ مكان، ويضمرون له من الحقد والبغضاء ما لو امتدَّ إلى جسمه لأحرقه  
وأحاله رماداً بارداً.

أنت المجرم وأنا المعاقب، أنت الخائن وأنا المأخوذ بخيانتك، أنت المتمتع  
بنعمة الشرف العظيم الذي لا تستحقه، وأنا المتسرِّبُ بِسِرِّبَالِ الإهانة الدائمة  
التي لا أستحقها! لقد أخطأ القدرُ في أمرنا مرتين؛ فرفعك من حيث تستحقُّ  
الوضع، ووضعني من حيث أستحقُّ الرِّفْعَ، ولو أنه أنصفَ في حكمه بيننا لأخذ كلُّ  
منا مكانَ صاحبه، فأصبح التمثالُ لي، وأصبح السجنُ لك!

هنيئاً لك مجدك وشرُّك وصيتك وسمعتك، وما أهْنِك! تهنئة الهازئِ  
الساخر، بل تهنئة الفارح المغتبط، لأنك أبي، ورئيسُ أسرتي، وسيّدُ قومي  
وحبيبُ إليَّ جدًّا أن يعيشَ أبي عظيمًا في حياته وبعد مماته!

إن آلامي يا أبتِ عظيمةٌ جدًّا لا تستطيعُ أن تحملها نفسٌ بشريّة في العالم،  
ولكنَّ يَهُونُهُ عليَّ أنني أموت من أجلك وفي سبيلِ مجدِّك وشرِّفك، وأنني لم أخرج  
من الدنيا حتى رأيت تمثالك العظيم مشرفاً من علياء سماءه على جبال البلقان  
وهضابها كما تشرف الشمس من أبراجها على ما تحتها.

(1) وتره، أصابه بمكروه

ما أنا بنادم على ما كان، ولا خائف مما يكون، فليأت الموت إليّ في الساعة  
التي يُريدها، فقد قمتُ بواجبي لك ولبلادي، وحسبي ذلك وكفى.  
كان لا بد لي أن أقتلك ففعلت، ولكنني قتلتك فيجب أن أُقتل بك.  
كلانا أجرم وكلانا لقي جزاءَ إجرامه.

أجرمت إلى الوطن فانتقمت له منك، وأجرمت إلى الطبيعة فمن العدل أن  
تنتقم لنفسها مني، فما ظلم أحد منا صاحبه ولا اعتدى عليه.  
ارفع رأسك أيها الرجل تيهًا وعُجْبًا، وزاحمِ بمنكبيك أجرامَ السماء وكواكبها،  
فقد غسل ابنك بدمه جُرمك وعارك، فإن لم تكن شريفًا بنفسك فحسبك شرفًا  
أنك والدُ الولدِ الشريفِ!  
ولم يزل في مناجاته هذه حتى مضت هداةً من الليل، فالتف بردائه ووضع  
رأسه على قاعدة التمثال وأسلم نفسه إلى نومٍ طويل.



## النهاية



الناس يوم المحاكمة في الساحة الكبرى ازدحاماً  
**ازدحم** عظيمًا ينتظرون عودة الملك من مجلس القضاء  
 ليعلن حكمه أمام المتهم، والمتهم هادئ ساكن تحت  
 قاعدة التمثال لا ينتظر شيئاً، لأنه يعلم أن الموت جزاؤه الحتم وقد  
 وَطَّنَ<sup>(1)</sup> نفسه عليه فلم يعد يحفل به.

وإنهم لذلك إذ أقبل الملك تحيط به حاشيته، فاشترأبت  
 إليه الأعناق لسماع كلمته، ولم يزل سائراً بين الصفوف حتى  
 وقف أمام المتهم، فنظر إليه نظرة طويلة ثم صاح بأعلى صوته:  
 يا قسطنطين برامكومير، إن الجريمة التي اقترفتها عظيمة  
 جداً لا يفي بها قتلك وسفك دمك؛ لذلك رأى مجلس القضاء  
 أن يحكم عليك بالحياة بدلاً من الموت... فقاطعه الجماهير،  
 الموت! الموت! لا بد من قتله لا يمكن أن يعيش! فأشار إليهم  
 بالهدوء والسكون حتى يسمعوا بقية كلامه، فهدأوا، فاستمر  
 يقول: وأن تظل طول أيام حياتك مقرونا بأغلالك هذه إلى  
 قاعدة تمثال أبيك، ليتردد وجهه في وجهك ليلك ونهارك،  
 فتموت في مكانك حياً منه وخجلاً، وأن يؤذن لكل مار بك من  
 عليّة الناس وغوغائهم أن يبصق على وجهك ويصفعك على  
 قدالك، وينال منك ما يشاء إلا أن يسلبك حياتك.

(1) وطن، عود.

فصاح الجماهير: يعيش الملك! يحيا العدل! يسقطُ الخائن!  
وظلُّوا يُرَدِّدون هذه الكلماتِ وأمثالها وقتًا طويلاً.

هنا ذرّفت عينا ذلك الرجل العظيم الذي لم يبيك في يوم  
من أيام حياته لضربة سيف، أو طعنة رُمح، أو رشقة سهم،  
وعلا صوتُ نَحيبه ونَشيجِه كما يفعلُ النساءُ الضعيفاتُ في  
مواقف حُزنهن وتكلهن، وما كان مثله من يبكي أو يذرفُ دَمعة  
واحدة من دُموعه لو أن الذي كُتِب له في صحيفة الغيب من  
الشقاء، كان الوقوف بين السيف والنّطع<sup>(1)</sup>، أو السقوط بين  
آلات العذاب تنالُ من جسمه وأطرافه ما تشاء؛ ولكنه الشرف،  
شديدٌ جدًّا على صاحبه أن تنزلَ به نازلةٌ مُدلة، أو يتصلَّ  
به ظفرٌ جارحٌ من أظفرِ الهوان، فإذا شَعَرَ بشيءٍ من ذلك  
هاله الأمرِ وراعَه، وخارت عَزمته، ووهنت قُوته؛ فبكى بكاءَ  
الضعفاء، وأَعوَلَ إعوَالَ النساءِ. ولقد رَضِيَ قسطنطينُ من  
حظه من الحياةِ بالموتِ فرارًا من العار الذي لَحِقَه، وهربًا  
من نظراتِ الناظرين إليه، ومَوجِدَة الواجدين عليه؛ أما وقد  
علم أنه سيعيش والعارَ معًا رقيقين متلازمين، لا يفترقان ولا  
ينفصلان، فلم يبقَ له بدٌّ من الجزع، ولم يبقَ بين يديه سبيلٌ  
غيرُ البكاء، فبكى ما شاء الله أن يفعل، وأخذ يُرَدِّد بينه وبين  
نفسه: يا لبؤس! ويا للشقاء! لقد استحال عليّ كلُّ شيءٍ حتى  
الموت!

ثم رفع طرفه إلى السماء وقال بصوت خافتٍ مقتطع: رَحِمَتِكَ

(1) النطع: فرش من جلد كان يبسط للمحكوم عليه بالموت ليذبح فوقه، فهو بين السيف من فوقه والنطع من تحته.

اللهم وإحسانك، فقد أصبحت عاجزاً ضعيفاً لا أملك من شؤون نفسي شيئاً، فامدُدْ إليَّ يدَ عِنايتِكَ ولَطْفِكَ لِأَسْتَطِيعَ أَنْ أَتَمِّمَ وَاجِبِي إِلَى النِّهَايَةِ!

وهنا وقف «لازار» فوق هضبة مرتفعة. وكان لا يزال رأس الفتنة وشعلتها. وأخذ يصرخ بصوت عالٍ قائلاً: إن رأى مولانا الملك أن يأذن لنا بتنفيذ أمره الساعة... فقد أوشكت صدورنا أن تنفجر! فصاح الجمهور من ورائه صيحه، ودعواً بمثل دعوته؛ فاصفر وجه الملك وارتجفت أطرافه ارتجافاً خفيفاً، ثم قال بصوت خافت متهافت: لكم ما تشاءون! وتحول من مكانه يريد الانصراف.

وهنا برزت «ميلتزا» من بين الجماهير، واندفعت نحو قسطنطين تسبق المندفعين إليه، وهي تقول فليبق لك أيها المسكين على الأقل قلبٌ واحدٌ يرحمك ويعطف عليك! وضمته إلى صدرها كأنما تريد أن تقيه بنفسها، فسمع الملك صوتها فالتفت فراها، ولم يكن يعرف من شأنها شيئاً، فعجب لأمرها وأشار إلى الجماهير بالسكوت حتى يعلم ما خطبها، ثم مشى نحوها وقال لها: أتعلمين أيتها الفتاة من هذا الذي تحمين؟ وما جريمته التي اقترقتها؟ فرفعت رأسها إليه وألقت عليه نظرة الليث في عرينه، وقالت له: لا أعلم من أمره شيئاً سوى أنني أحبه، ولا أذن لأحد أن يناله بمكروه وفي بقية رَمَقٍ من الحياة! قال: إنه ارتكب جريمة الخيانة الكبرى للأمة والوطن، وقد حكم عليه مجلس القضاء بالتعذيب، ولا بد من إنفاذ حكمه. قالت: إن الحب فوق العدل وفوق القانون وفوق كل شيء في العالم، فمَرِّقُونِي إِرْبًا إِرْبًا لِتَسْتَطِيعُوا أَنْ تَصِلُوا إِلَيْهِ!

فلمعت في ثغر قسطنطين ابتسامة في وسط هذه الدجّة

الحالكة<sup>(1)</sup> من الهموم والأحزان، وضمها إلى نفسه وقال لها: شُكراً لك يا ميلتزا، فقد أحييت نفسي الميتة، وسرّيت عني همومي وآلامي؛ ذودي عني يا صديقتي، وصوني وجهي من العار الذي يريدون أن يُلصقوه به، فلم يبق لي في العالم من يرحمني ويعطف عليّ سواك!

وأخذ الجماهيرُ يصيحون: اقتلوهما معاً، مزقوا جسميهما بالسيوف، وانثروا أشلاءهما في الفضاء.

ثم تدافعوا نحوهما تدافع الصُخور الهائلة من أعالي الجبال، فصاحت ميلتزا: أيتها الوحوش الضارية، والخلائق الساقطة، مهما كثر عددكم، وعظمت قوتكم، فإنكم لن تستطيعوا أن تصلوا إليه أو تلحقوا به إهانة من الإهانات التي تضمرونها في نفوسكم، فإن أبيتُم إلا أن تفعلوا فاعلموا أنني أنا الفتاة الضعيفة المسكينة قادرة على أن أخلصه من أيديكم! فلم يحفلوا بكلامها ولم يفهموا غرضها، واستمرّوا في اندفاعهم وتدفعهم.

وهنا حدث ذلك الحادثُ الهائل الذي شخّصت له الأبصارُ، وذهلت له العقولُ، وجمدت لمنظره الدماءُ في العروق؛ فقد علمت «ميلتزا» أن القضاء واقع لا مفرّ منه، وأن القوم لا بُدّ بالغون من قُسطنطين ما يريدون، وأن لا طاقة لها بحمايته والدُّود عنه، وهالها هولاً عظيم وكبير في نفسها أن ذلك الوجه الشريف المتلائم بنور الفضيلة والكرم والطهارة والبراءة يُصبح هدفاً دنيئاً لهؤلاء الفوغاء الثائرين، يُلطمه من يلطم، ويبصق عليه من يبصق؛ فلما أصبحوا على مقربةٍ منها ولم يبق بينهم وبينها إلا بضْع وثبات،

(1) الظلمة الحالكة.

حَنَّتْ عَلَيْهِ وَهَمَسَتْ فِي أُذُنِهِ قَائِلَةً: فِي اسْتَطَاعَتِكَ يَا سَيِّدِي أَنْ تُنَجِّيَ نَفْسَكَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ تَعْتَرِفُ فِيهَا بِكُلِّ شَيْءٍ! فَرَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ أَلْقَاهُ عَلَى تَمَثَالِ أَبِيهِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا نَظْرَةً دَامِعَةً حَزِينَةً وَقَالَ: «لَا أَسْتَطِيعُ!»

فَجَرَدَتْ مِنْ مَنْطِقَتِهَا خَنْجَرَهَا الَّذِي كَانَتْ قَدْ اسْتَهَدَتْهُ إِيَّاهُ فِيمَا مَضَى، وَرَفَعَتْهُ فِي الْهَوَاءِ ثُمَّ طَعَنَتْهُ بِهِ فِي صَدْرِهِ طَعْنَةً نَجْلَاءً وَهِيَ تَقُولُ: مَتَّ شَرِيفًا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْعَظِيمُ كَمَا عَشَّتْ شَرِيفًا، وَسَأَتْبَعُكَ إِلَى سَمَاوَاتِكَ الَّتِي تَصْعَدُ إِلَيْهَا. فَسَقَطَ مُضْرَجًا بِدِمَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ مُتَقَطِّعٍ: شُكْرًا لَكَ يَا مِيلْتْرَا.

وَكَانَ الْقَوْمُ قَدْ بَلَغُوا مَوْقِفَهُمَا: فَرَفَعَتْ الْخَنْجَرَ مَرَّةً أُخْرَى وَطَعَنَتْ بِهِ نَفْسَهَا، فَتَرَنَّحَتْ قَلِيلًا ثُمَّ سَقَطَتْ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ، وَكَانَ لَا يَزَالُ يُعَالِجُ السَّكْرَةَ الْأَخِيرَةَ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فَرَأَاهَا، فَأَخَذَ يَسْحَبُ نَفْسَهُ سَحْبًا حَتَّى بَلَغَ مَصْرَعَهَا، فَأَلْقَى يَدَهُ عَلَيْهَا وَظَلَّ يَجْدِبُهَا نَحْوَهُ كَأَنَّمَا يُحَاوِلُ أَنْ يَضُمَّهَا إِلَى نَفْسِهِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَسَقَطَ رَأْسُهُ عَلَى صَدْرِهَا، فَشَعَرَتْ بِهِ، فَضَاءَتْ مَا بَيْنَ شَفَتَيْهَا ابْتِسَامَةً ضَنْئِيلَةً لَمْ تَلْبَثْ أَنْ انْطَفَأَتْ وَتَغْلَغَلَتْ فِي ظُلُمَاتِ الْمَوْتِ، وَظَلَّ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ حَتَّى فَاضَتْ نَفْسَاهُمَا.

فَأَثَرَ هَذَا الْمَنْظَرَ الرَّهِيبُ فِي نَفُوسِ الْجَمَاهِيرِ، وَسَكَنُوا فِي مَوَاقِفِهِمْ سَكُونًا عَمِيقًا لَا تَتَخَلَّاهُ نَامَةٌ وَلَا حَرَكَةٌ، وَظَلُّوا عَلَى ذَلِكَ سَاعَةً حَتَّى نَطَقَ الْمَلِكُ بِصَوْتِ خَشْنِ أَجْشٍ تُخَالِصُهُ رَنَّةُ الْحَزَنِ وَالْأَسْفِ قَائِلًا: أَيُّهَا الْمَسِيحِيُّونَ: صَلُّوا جَمِيعًا لِلْهَذِينَ الْبَائِسِينَ وَالشَّقِيَّيْنَ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ لَهُمَا الرَّحْمَةَ وَالْغُفْرَانَ.

ثُمَّ رَفَعَ قَلَنْسُوتَهُ وَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَرَفَعَ الْقَوْمَ قَبَعَاتِهِمْ وَجَثَا

حول الجثتين وأخذوا يتلون صلواتهم بنغمة حزينة مؤثرة، كأنما هم  
يكون عزيزاً عليهم، أو شهيداً من شهدائهم! وما فعلوا غير ذلك  
لو كانوا يعلمون...

ظلت هذه الحقيقة مجهولة لا يعلمها أحد من الناس خمسة  
وثلاثين عاماً، حتى حَضَرَ «بازيليد» الموت، فظلت تهذي بها في  
مرضها، وترددتها في يقظتها وأحلامها، وتألّم لذكرها ألماً  
شديداً على مَسْمَع من كاهنها وعواديها، حتى فاضت رُوحها،  
فعلم الناس - ولكن بعدَ عهدٍ طويل، وبعد أن تبدّلت شؤونُ البلقان  
غَيْرَ شئونه - أن «قسطنطين برانكومير» أشرف الناس وأفضلهم،  
وأعظمهم وطنياً وإخلاصاً؛ لأنه ضحّى أباه في سبيل إنقاذِ وطنه،  
ثم ضحّى نفسه في سبيل إنقاذِ شرفِ أبيه؛ فبلغ في وطنيته وشرف  
نفسه الغاية التي لا غاية وراءها.

مات

obeikandi.com

# المحتويات

3	تقديم
4	روائع الأدب العالمي
5	في سبيل التاج
7	وقفة لأبد منها
11	إهداء الرواية إلى البطل المصري العظيم سعد زغلول باشا
13	مقدمة لحضرة الكاتب الشهير حسن بك الشريف
14	التعريف بفرانسوا كوبيه
16	الرواية
19	مقدمة
21	الجاسوس
26	قسطنطين
36	التاج
39	المؤامرة
43	الأمل
46	السر
50	الجريمة
65	الضمير
67	الأزهار
70	حديث
73	الدسيسة
84	التمثال
88	النهاية

obeikandi.com